ميزان الكون قدري و ميزان الشرع تكليفي

سورة الرحمن

د أحمد نصير

تمهيد :-

"الرحمن" اسم من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو من الأسماء التي لا يجوز لا يشاركه فيها أحد ، فلا يجوز أن يتسمى أحد بلفظ (الرحمن) ، فلا يُطلق هذا الاسم على غيره سبحانه ، فقد جاء اللفظ على صيغة (فعلان) للدلالة على المبالغة ، وهو اسم دال على صفته ، فاسم الرحمن دال على أنه (رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم)[1] .

والعجيب أن رد فعل المشركين لما سمعوا هذه السورة كان عنيفا ، إذ لما سمعوا عبد الله بن مسعود يقرأ آيات من سورة الرحمن انهالوا عليه ضربا ، ذلك أنهم كانوا يكفرون بالرحمن ، فلم يدع أحد منهم أن آلهتهم تملك صفة الرحمة ، ولذلك قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)(الرحمن60) .

فعن عروة بن الزبير بن العوام قال : كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا قالوا : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن آذوه فقال : دعوني فإن الله عز وجل سيمنعني فغدا عبد الله حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام فقال رافعا صوته (بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن علم القرآن) فاستقبلها فقرأها فتأملوا فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ فقاموا فجعلوا يضربون في وجهه و جعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه فقالوا : هذا الذي خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ، قالوا : حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون)[2].

وقد استظهرت السورة آيات من رحمته سبحانه لا يمكن التكذيب بها ، فهي من الوضوح ما يمتنع على أحد أن يشكك بها ، ولذلك كلما ذُكرت آية تدل على رحمة الله كلما جاء بعدها قوله سبحانه (**فبأي آلاء ربكما تكذبان**) ، وقد تكررت آية (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في السورة كثيرا ، وكان رد فعل الجن المسلم عليها أحسن من رد الإنس ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ قال : ما لي أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم من مرة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) لا قالوا **ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب فلك الحمد**)[3] ، وذلك كلما ذكرت آية من آيات الرحمن .

وقد ابتدأت السورة بذكر اسم الله "الرحمن" وأتبعته بثلاثة أفعال راجعة له سبحانه تدل على أنه يمنُّ على خلقه **بالتعليم والإيجاد والفهم والتقدير** ، تلك هي مؤهلات الإنسان للاستخلاف في الأرض ، مع الإشارة إلى خضوع الكون كله له سبحانه ، فقد تكفل الله بإقامة الكون على ميزانه القدري سبحانه ، فلا شيء في هذا الكون خارج عن قدره ، ولم يجعل بيد

[1]) تفسير أسماء الله الحسنى ج 1 ص 28 لمؤلفه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالزجاج - الناشر : دار الثقافة العربية - دمشق ، 1974 - تحقيق : أحمد يوسف الدقاق

[2]) سيرة ابن اسحاق ج1 ص 166

3) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 515 رقم 3766 ، صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه والترمذي ج11ص99 رقم 3213 ، ورواه أحمد، وصححه الألباني صحيح الترمذي ج3 ص 112 رقم 2624

أحد من خلقه سلطان عليه ، **وأوكل للإنسان إقامة ميزانه الشرعي** ، وتحقيق العدل في الأرض ونشر السلام والخير والرخاء بما يظهر نعمة الله على الخلق (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

وقد ربطت مقدمة السورة بين رحمة الله **وميزانه الكوني** ، ما من آية ذكر الله فيها ميزانه الكوني إلا تلاها قوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ، مؤكدة أن الكون يسير بميزان محكم ، فميزانه الكوني يقوم على الرحمة التي تنال المسلم والكافر على السواء ، فالكل ينهل من نعمه ، ولم يفوض أحدا من خلقه في توزيع في شي من هذا الميزان لا في الإيجاد ولا الفناء ولا في توزيع الأرزاق ولا في القدرة المطلقة ، وميزانه الشرعي يقوم على القسط الذي لا شطط فيه ولا طغيان ، وعلى المكلفين أن يقيموا **ميزان الشرع** بالقسط كما أمر الله تعالى .

كما فرقت بين ميزان الدنيا وميزان الآخرة ، فتحدثت في الحياة الدنيا عن ثلاثة موازين "**الإيجاد**" و"**الفناء**" و"**الرزق**" وبهم يتحقق معنى الابتلاء ، حيث يبتلى المرء بالموجودات ثم بنفائها وبالرزق أمقدر أم موسع .

كما تحدثت عن ثلاثة موازين في الآخرة ، **ميزان للأعمال الفاسدة** حيث جاء تهديد الله ووعيده لمن فسد عمله وأظهرت الآيات تحدي الخالق خلقه وإعجازه لهم ومحاسبتهم ومعاقبة المجرمين منهم ، كما تحدثت عن **ميزان الإحسان** لعباده المقربين في الآخرة ، وعن **ميزان الإكرام** لسائر عباده المرحومين برحمة الله تعالى في دار النعيم .

وقد أشارت السورة إلى ظاهرة التباين في الموجودات ، فأشارت إلى **اختلاف طبيعة المادة** التي خلق منها كلا من الإنس والجان ، وأن الذي خالقهما واحد وأن ربهما هو الله ، ودوران الكون وما يرتبط به من **اختلاف بين المشرق والمغرب** بل إن الاختلاف كائن في الموضع الواحد بحسب اختلاف الزمان عليه **كاختلاف مشارق الشتاء وعن مشارق الصيف ومغاربهما** ، وهو ذات **الاختلاف بين البحر المالح والبحر العذب** ، وبالرغم من ذلك فهناك قاسم مشترك بينهما يتمثل في تحقيق النفع العام للأنام ، وسواء أكان هذا النفع في تأثير أشعة الشمس على الأرض أو مما يغوص في أعماق البحار أو يجري على مائها ، ما يدل على أن الكون بكل تنوعه واختلاف موجوداته مسخر لعبادة الله سبحانه ، ثم يؤول كل ذلك الملك إلى الفناء ، فلا يبقى إلا الله وحده لا شريك له ، ليستقر في الضمير أن المعطي هو الله والمانع هو الله ، ولا مانع لما يعطي ولا معطي لما منع .

فإذا ظل الثقلان يكذبان بهذه الحقائق التي أكدها كتاب الله العزيز فإنه يتهددهم ويتوعدهم ويتحداهم أن يخرجوا عن سلطانه وأنى لهم ذلك ، فإذا ما ازداد تعاظم الثقلان ، فإنه حتما محتما سوف يقبض هذا الكون ويقيم الساعة على شرار الخلق ، فلا يكون إلا الجزاء الذي هو من جنس العمل ، فأما المجرم المكذب يعذبه الله في جهنم التي كان يكذب بها ، وأما الذي خاف مقام ربه ، فله جنتان يمتعه الله بهما متاع المقربين ، وأما من التزم طريق أصحاب اليمين وإن لم يصل إلى درجة المقربين فإن رحمة الله تشمله بنعيم دون نعيم المقربين ، فإنه وإن كان نعيمه ليس مثل نعيمهم ، إلا أن نعيمه ليس مثله نعيم ، وتستطرد السورة في وصف نعيمهما استطرادا يطمئن القلوب إلى ما أعده الرحمن لعباده المؤمنين ، ليتبارك اسم الله تعالى متجليا بإكرامه لأهل الجنة عند رؤيته .

مقدمة سورة الرحمن

قال تعالى (الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ، وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ، وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ، وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن/1-13)

أي باسم الله (الرحمن) الذي أنزل الوحي وعلمه رسله ، وخلق الإنسان وحمَّله أمانة الدين ، وجعله قادرا على البلاغ والبيان بعد الفهم والإيمان ، وهيأ له ظروف الزمان والمكان وخلق رزقه الساجد لله ، وأحاطه بسقف محفوظ ، وبقدر وتقدير موزون ، والكل له خاضع ومنقاد ، خاشع وساجد ، كلف الله الإنسان بإقامة شرعه ، وإقامة العدل ، وتحقيق السلام ، لينعم الأنام في الأرض بنعمة الرخاء والرغد في العيش .

أي بحق رحمة الله للخلائق وتعليم الناس القرآن وخلق الإنسان وتعليمه البيان ، وبحق خلق الشمس والقمر والنجم والشجر ورفعه للسماء بلا عمد ، وكل ذلك بميزان كوني فقد أتي الأمر الإلهي للإنسان بإقامة الميزان الشرعي (ألا تطغو في الميزان) ، فالله تعالى وزن الكون بميزان الرحمة ، وأمر الإنسان أن يزن الحقوق بميزان العدل ، فبرحمة الله وعدل المكلفين تنصلح الأرض للأنام ، وتخرج منها الفاكهة والحب والريحان ، وهذا التوازن لابد منه لاستمرار الوجود حتى قيام الساعة .

مقدمة سورة الرحمن

قوله (الرَّحْمَنُ) اسم من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف 180) ، والرحمن اسم يدل على الإغناء والاستغناء ، فمن نال رحمة الله اغتنى بها واستغنى عمن سواه ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل دينا لأدى الله عنك ؟ قل يا معاذ اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير رحمن الدنيا والآخرة تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء **ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك**)[1].

قوله (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) بين سبحانه طريقة تعليمه لنبيه ، وأمره بعدم العجلة فقال (و**لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**) (طه 114) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ** وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) [الشورى:52].

كما بين سبحانه طريقة تعليمه للناس ، فقال (**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**) ، أي أنزله مفرقا بحسب كل حادثة ليكون تعليمه للناس مطابقا للواقع الذي يعيشون فيه ، فيسهل عليهم العمل به بعد أن عرفوا مناسبة نزوله ، كما بين سبحانه تأثير تعلمه على من تلقاه من أولي العلم فقال (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا** * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)(الإسراء 106-109)

ومدح الذين تعلموا القرآن فقال (**إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ** مِنْ النَّاسِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ **هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**)[2] ، وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا** لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ)[3] .

قوله (خَلَقَ الْإِنسَانَ) تباهى الله بخلق الإنسان الذي قعد في حلق الذكر يتلو كتاب الله ، فعن معاوية أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا **جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ** عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا قَالَ آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ قَالُوا وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ **اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ**)[4].

---

[1]) المعجم الصغير للطبراني ج1 ص 336 رقم 558 وحسنه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 171 رقم 1821
[2]) رواه ابن ماجة ج1 ص 250 رقم 211 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 42 رقم 178
[3]) رواه الترمذي ج10 ص 153 رقم 2835 صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص77 ، صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6ص410
[4]) رواه مسلم ج13 ص 214 رقم 4869

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْرِعًا قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ أَبْشِرُوا هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ **يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ** يَقُولُ انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ **قَضَوْا فَرِيضَةً وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى)**[1]، كما تحدث النبي ﷺ عن يوم عرفة وسماه بيوم المباهاة [2]، قال رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ **يَوْمِ عَرَفَةَ** وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ **يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ** فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ)[3].

قوله (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) فالبيان هو البلاغ عن الله سبحانه ، يقول النبي ﷺ (**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**) [4]، فالبلاغ يكون بحسب البيان ، وحسن البيان يسحر العقول ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**)[5] ، قال ابن الأثير (**البَيَان إظهار المقصود بأبْلَغ لفْظ** وهو من الفهْم وذكاء القلْب ، وأصله الكَشْف والظُّهور .

وله معنى مذموم قيل معناه أنَّ الرجُل يكون عليه الحقُّ وهو أقْوَمُ بحُجَّته من خَصْمه فيَقْلب الحقَّ بِبَيانه إلى نفْسه لأنَّ معنَى السّحر قلْبُ الشيء في عَيْن الإنسان وليس بقَلْب الأعْيان ألا تَرى أنَّ البليغ يَمْدَح إنْسانا حتى يَصْرف قُلوبَ السَّامعين إلى حبه ثم يَذُمُّه حتى يَصْرِفَها إلى بُغْضِه)[6].

وقال ابن الأثير (أي منه ما يَصرف قلوب السامعين وإن كان غيرَ حقّ ، وقيل معناه إنّ من البَيان ما يكْتَسب به من الإثْم ما يكْتَسبه الساحر بِسحْرِه فيكون في مَعْرِض الذَّم) [7].

وقيل (ويجوزُ أن يكون في **مَعْرض المَدْح** لأنه يُسْتمالُ به القلوبُ ويُتَرضى به الساخط ويُسْتنْزل به الصَّعْب)[8].

والبيان هو مما علمه الله لنبيه حيث قال (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (القيامة 18-19) ، أي أن بيان هذا القرآن هو نعمة من عند الله تعالى على خلقه مشروط بتقواه كما في قوله (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة 282) ، وقال (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)(مريم 97) .

وقد كان بيان النبي ﷺ بليغا جامعا للكلم ، قال رسول الله ﷺ (**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**) [9]، وفي رواية قال (أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ)[10] ، قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الْكُتُبِ قَبْلَهُ فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ .

وعن عبد الله بن عمرو مخبرا عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ قَالَ (وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) .. وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا

---

[1]) رواه ابن ماجة ج3 ص 24 رقم 793 ، وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 133 رقم 653
[2]) أخبار مكة للفاكهي ج7 ص 290 رقم 2685 ، معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ج17 ص 491 رقم 5576
[3]) رواه مسلم ج7 ص 70 رقم 2402
4) رواه البخاري ج11 ص 277 رقم 3202
5) رواه البخاري ج16 ص 114 رقم 4749
[6]) النهاية في غريب الأثر ج1 ص 454
[7]) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 875
[8]) النهاية في غريب الأثر ج2 ص 875
[9]) رواه البخاري ج21 ص 379 رقم 6496
[10]) رواه مسلم ج3 ص 111 رقم 814

اللَّهُ وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا)[1] ، فالشاهد من الحديث أن النبي ﷺ استطاع بقدر الله أن يفتح قلوب العباد للإسلام وقد أعطاه الله جوامع الكلم ، وعلمه الله حسن البيان ، وعلي هذا النهج لابد وأن يقتدي به الدعاة إلى الله المتبعين لسنته .

قوله (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) إشارة إلى ظرف الزمان الذي يقاس به عمر الكون والإنسان ، حيث يعيش الثقلان ، أي– الإنس والجن – فعن مجاهد، في قوله:(بِحُسْبَانٍ) قال: (كحسبان الرحا)[2] .

كل كوكب في المجموعة يدور حول الشمس في مسار لا يخطئه (عطارد ، الزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زحل ، أورانوس...)

فهذا الزمان تحددت سنواته بدوران الأرض حول الشمس وشهوره بدوران القمر حول الأرض ، وكل منهما يدوران في فلك بحسبان ، فلا تقصر سنة عن سنة ولا تطول ، وكل ما في الكون خاضع لله ، ويسير بقدر وتقدير ، أي (يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما)[3] .

قوله (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) المراد بالنجم هنا النجوم التي في السماء [4] بدليل آية الحج ، والشجر معروف ، فالنجم يتوالد في السماء[5] ، فالنجوم شموس [6]، وهي مصدر الحرارة للكواكب المجاورة ، تلك الحرارة التي هي سبب الحياة علي الكوكب ، أما الشجر فهو الذي ينبت على الأرض ، وهو مصدر الغذاء علي الكوكب ، وفي ذلك **كناية على التوالد والتكاثر والحياة** في الكون الفسيح سواء في السماء أو في الأرض .

[1]) رواه البخاري ج7 ص 321 رقم 1981
[2]) تفسير الطبري ج22 ص 10
[3]) أيسر التفاسير للجزائري ج4 ص 180 ، أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 4785
[4]) انظر ابن عثيمين : https://www.youtube.com/watch?app=desktop&v=A_FbqoZ-39A
وانظر المغامسي : https://www.youtube.com/watch?v=Vxc5NcL7sEA
بأن النجم هو النبات الذي لا ساق له بقرينة وهي عطف الشجر عليه ، وهو له ساق ، ولا إشكال في تحديد الموصوف بالنجم فكل ساجد لله
[5]) يقول راغب في مفرداته: "أصل النَّجْم، الكوكب الطالع، و جمعه نُجُومٌ، و نَجَمَ، طَلَعَ، ... و منه شُبِّهَ به طلوعُ النّبات
راغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 791- 792، عبارة "نجم"
[6]) https://www.youtube.com/watch?v=l4lRanjxeaI

والمراد بالسجود انتظام خلقهما وتوافق حركتهما كما أراد الله تعالى ، فكل ما فيهما خاضع لله تعالى يسبح بحمده ، فما نجم شيء من خلقه الله وما شجر وتفرع عنه إلا وخضع لله وسجد ، كما في قوله سبحانه (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**) (فصلت 11) .

قوله (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا) إشارة إلى الظرف المكاني الذي يحيط بهذا الكون ، ولا يتعداه مخلوق أرضي ، محكوم عليه بالهبوط إلى الأرض ، قال تعالى (وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (البقرة 36) والارتداد إلى أسفل سافلين ، قال تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين 4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)(التين 5) .

والسماء المرفوعة هي سقف الأرض التي تحفظها ، قال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) (الأنبياء 32) ، فهذه السماء خلقها الله تعالى لتكون حاجزا عن الأرض ، كما أنها حاجز للإنسان عن أن يخرق حدوده المكانية ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينفذ الإنسان منها وإلا صارت السماء أرضا ، فكل ما في الكون له حدود ثابتة ويسير في خط ومسار قدري لا يخرج عنه .

وتأمل في قدرة الله الخالق ، قال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)(لقمان10) ، وجعلها طبقات لكل طبقة خصائص فيزيائية مختلفة ووظائف مختلفة ، فمن الذي رتب هذه الحواجز ومن الذي رفعها فوق بعض .

فكما أنه سبحانه حد للأرض سماء ، فإنه –كذلك– حد لأحكامه وشرعه حدودا لا يجوز أن يتعداها المكلفون وإلا عد ذلك طغيان منهم وشدة عصيان .. قال رسول الله ﷺ (فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها)[1].

قوله (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) فهما ميزانان ، أحدهما كوني قدري أو آخر شرعي تكليفي .

[1]) رواه الدارقطني ج4ص183 رقم 42 وقال الألباني حسن لغيره ، في تعليقه على تخريج شرح العقيدة الطحاوي ج1 ص 338 ، والإيمان لابن تيمية ج1 ص 44

فأما الميزان الكوني فهو الذي يحفظ الله به لهذا الكون اطراده واستمراه ، وهو ما يسميه علماء الطبيعة بالتوازن البيئي ، ويمكن تعريفه بأنه بقاء مكونات وعناصر البيئة الطبيعية على حالتها ، فالعلاقة متكاملة بين جميع عناصر البيئة ، فأشعة الشمس والنبات والحيوان والبلد والإنسان وبعض مكونات الغلاف الغازي في إتزان مستمر ، كما أن هناك علاقة وثيقة بين العناصر الطبيعية والحياتية الموجودة حول وداخل سطح الكرة الأرضية ومكوناتها المختلفة ، وهذا يعني أن عناصر البيئة تحافظ على وجودها ونسبها كما أوجدها الله .

إذ يعتمد النظام البيئي على التفاعل المنظم والمستمر بين عناصر البيئة الحية وغير الحية، ويتحقق التوازن البيئي بقدرة البيئة على إعالة الحياة على سطح الأرض دون مشكلات أو مخاطر تمس الحياة البشرية ، والتوازن البيئي على سطح الكرة الأرضية ما هو إلا جزء بسيط من التوازن الدقيق في نظام الكون

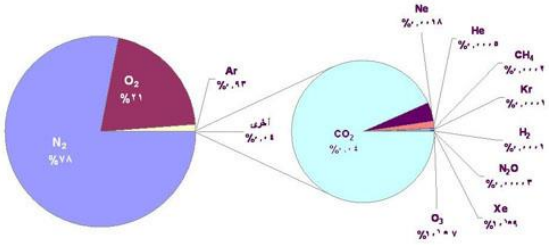

فعلى سبيل المثال نسبة الأوكسجين على الأرض لا تتجاوز 21 % تقريبا

فلو زادت نسبة الأكسجين علي سطح الأرض عن 20% لاشتعل الهواء بأبسط احتكاك ، ولو قلت عن ذلك لقلت كثافته في الهواء ولصعد لمستوى أعلى ، فيحدث صعوبة في التنفس واختناق ، فضلا عن الآثار الأخرى الضارة بالبيئة .[1]

وأما الشرعي فهو ما ذكره مجاهد (الميزان) قال (العدل)[2] ، كما في قوله (اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) (الشورى 17) قال ابن كثير يعني: (الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه) " والميزان " ، وهو: (العدل)[3].

[1]) https://el-ma3lomaa.com/2017/01/oxygen-presentage.html
[2]) تفسير الطبري ج22 ص 14
[3]) تفسير ابن كثير ج7 ص 196

قوله (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) ، المقصود بالميزان –هنا – العدل[1] ، فالإنسان مكلف بإقامة العدل بميزان الشريعة الإسلامية ، وغير مكلف بتحقيق العدل المطلق الذي هو الحق المطلق وفق ميزان الله في الآخرة ، قال ابن تيمية (الْعَدْلُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ بِهِ الرُّسُلَ ، وَالرَّسُولُ لَا يَأْمُرُ بِخِلَافِ الْعَدْلِ وَلَا يَحْكُمُ فِي شَيْئَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ بِحُكْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَلَا يَحْرُمُ الشَّيْءُ وَيَحِلُّ نَظِيرُهُ)[2].

وعن قتادة رضي الله عنه في قوله (ألا تطغوا في الميزان) قال : **اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك** وَأَوْفِ كما تحب أن يُوفَى لك ، فإن العدل يصلح الناس)[3]، وفي رواية (**فإن بالعدل صلاح الناس**)[4].

والمسلم مأمور بالعدل حتى مع أعدائه ، قال تعالى (**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا** هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة8) .

ومن جهة أخرى نجد أن أكثر مؤثر على البيئة هو الإنسان، فقد بدأ الإنسان يغير في البيئة تغييرا كبيرا ويخل بالتوازن البيئي كما خلقها الله ، وذلك منذ أن بدأ ثورته الصناعية ، وأخذت التغييرات السلبية التي نتجت عن تدخله تتوالى وتتضخم ، فظهر الفساد في الأرض نتيجة تدخله على خلاف ما أمر الله وشرع ، قال تعالى (**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم 41) ، لا شك أن المعصية لها تأثير سلبي على البيئة والكون .

فإماطة الأذى أقل مراتب الإيمان ، فعن النبي ﷺ قال (الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان)[5] ، وبمفهوم المخالفة أن وضع الأذى للناس إفساد وفساد في الأرض ، لا سيما مخلفات المصانع والكيماويات في البيئة البحرية ، ومداخن المصانع التي تلوث الهواء ..الخ .

كذلك تغيير الأحكام التي شرعها الله تعالى بأحكام وضعية تخالف التوازن الذي أمر الله به ، لاسيما في الأسرة المسلمة ، حيث جعل الله القوامة للرجل بما يوجب على المرأة طاعته ، وجعل نفقتها عليه مرهونة بطاعتها له ، أدى إلى إفساد الأسرة ، حيث تنشز النساء لأجل الإخلال بهذا الميزان ، وليس أدل على ذلك من جواز تأديب الرجل زوجته بالضرب غير

---

[1]) أضواء البيان ج4 ص 184 استنادا إلى قول مجاهد وهو ما ذكره ابن كثير والطبري
[2]) مجموع الفتاوى ج22 ص 332
[3]) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج9 ص 355
[4]) تفسير الطبري ج22 ص14
5) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 209 رقم 598

المبرح في أحوال الضرورة التي تقدر بقدرها حتى لا تنشز عليه ، ومنع الرجل الذي لا ينضبط بتلك الضوابط من ممارسة حقه في التأديب الشرعي عند تجاوز تلك الضوابط ، فقد عرضت هذه المسألة على النبي ﷺ وقد اشتكت النساء تجاوز الرجال في حقهن ، فقضى بكف الرجال أيديهن عنهن ، ولكن النساء ذئرن ونشزن ، فأجاز النبي ﷺ للرجال استعمال حقهم في التأديب ، فعاد النساء للشكوى من جديد ، فنصح الرجال بالاعتدال وعدم الطغيان في ميزان التأديب ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ)[1]

فكان سكوت النبي ﷺ عن تقرير حكم جديد بخلاف الحال القائم إقرار لمبدأ جواز التأديب في حدوده الشرعية ،وقد أسدى نصيحته لمن يتجاوز هذه الحدود ، لأن تقرير قاعدة عامة بالمنع في هذه الأحوال يؤدي إلى مفاسد أكثر ، وإنما يجب بحث كل حالة على حدة ، وإصدار حكم خاص بكل حالة ، فلابد من وأن تترك القاعدة على إطلاقها بحيث يظل للرجل الحق في تأديب زوجته ، ولا يجوز منعه من ذلك إلا إذا ثبت بالدليل تجاوزه ذلك ، وذلك بعد رفع الأمر للقضاء ليبحث الحالة بذاتها ويقرر ، ويكون حكمه في كل حاله بحسبها ، دون أن يقرر قاعدة واحدة ، وقس على ذلك سائر المجالات .

قوله (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) فالخطاب للثقلين من الإنس والجان باعتبارهما المكلفين بإقامة ميزان الشرع والعدل على الأرض ، وكلاهما مخاطبان بالقرآن ، وهما ليسا مكلفان بالانشغال بالمحافظة على اطراد الكون ، فهو يسير بحسب الميزان الذي خلقه الله فيه ، لكنهما مكلفان بالانشغال بإقامة ميزان العدل والشرع في الكون ، فالميزان الكوني قد أمسكه الله تعالى ولم يتركه لأحد من خلقه ، أما ميزانه الشرعي فقد كلف الله به الثقلان وأمرهما بأن يقوما عليه ، دون طغيان وتجاوز لما حده الله من حدود ، قال تعالى (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل 152) .

والميزان هو الشرع فهو قائم على العدل ، وإقامته تعني إقامة الدين ، قال تعالى (وأَنْ **أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**) (الشورى:13) ، وإقامة الدين بالقول والعمل ، فعن مجاهد رضي الله عنه (وأقيموا الوزن بالقسط) قال : (**اللسان**)[2]، فلا ينطق إلا بالحق ، **فرب كلمة تهوي بصاحبها في النار وهو لا يدري** ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[3].

يقول الشيخ علي بن نايف السوري (والميزان هو المعيار الذي يقوّم به الحق والعدل وتعرف به حقائق الأشياء وتوزن به مقاديرها وقيمها ، فيوضع كل شئ موضعه فتقوم حياة الناس بالقسط في كل جانب من جوانبها ، هذا الميزان هو مودع في

[1]) رواه أبو داود ج6 ص 50 رقم 1834 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج6 ص 363
[2]) تفسير الدر المنثور ج 9 ص 355
[3]) رواه البخاري ج20 ص 119 رقم 5997

فطر الناس وفي العقول السليمة وهو مبين في كتاب الله وعلى لسان رسوله ، وفقه هذا الميزان أمر هام لإقامة حياة متوازنة تعرف لكل شئ حقه فتوفيه له وتنزل كل شئ منزلته)[1] .

ولكي يقوم العباد بأمر الله بإقامة الميزان ، فذلك **يعني القيام بالعدل في كافة مجالات الحياة** ، فإقامة العدل في الأسواق أحد صور ذلك ، وكذلك في مجال العدالة ، وكذلك في مجال الجيش والجهاد ، ...الخ ، فجميع مرافق الدولة تحتاج إلى إقامتها على العدل بميزان الشرع ، ومن هنا أسس الفقهاء نظرية فروض الكفاية ، لكي يتخصص بعض المكلفين في بعض المجالات فيقيموا العدل في مجالاتهم التي تخصصوا فيها بميزان الشرع ، فنجد الطبيب المسلم العادل ، والمدرس المسلم العادل والتاجر المسلم العادل وهكذا .

يقول الصنعاني (**طلب العلم من فروض الكفاية** ولو منع جميع الناس من التقليد وكلفوا الاجتهاد لتعين فرض العلم على الكافة وفي هذا اختلال نظام وفساد فلو كان يجمعهم التقليد لبطل الاجتهاد وسقط فرض العلم وفي هذا تعطيل الشريعة وذهاب العلم فلذلك وجب الاجتهاد على من تقع به الكفاية) [2] ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان طلب العلم غير قاصر بأحكام الشريعة ، بل يتعين العلم كذلك بأمور الدنيا كتأبير النخل والرزاعة والصناعة والبناء ، كان لابد من انتداب أبناء الأمور ليتخصصوا في فروع العلم سواء كانت متعلقة بالشريعة أو متعلقة بعلوم ظاهر الحياة الدنيا ، لإقامة ميزان الحياة وفق أصول وقواعد الشريعة الإسلامية ، ولذلك قال الزركشي (**وَمِنْ فُرُوضِ " الْكِفَايَةِ : الِاشْتِغَالُ بِعِلْمِ الطِّبِّ**)[3].

وكذلك نقل السيوطي عن الرافعي قوله (فروض **الكفاية أمور كلية تتعلق بها مصالح دينية أو دنيوية** لا ينتظم الأمر إلا بحصولها فطلب الشارع تحصيلها لا تكليف واحد منها بعينه بخلاف العين وإذا قام به من فيه كفاية سقط الحرج عن الباقين)[4].

والمسلم مطالب أن يقيم الوزن بالقسط ولو على نفسه ، فيعطي المظلوم حقه منه إن كان هو الظالم له ، ويقتص من نفسه لغيره ، ويقر ويشهد على نفسه ما اقترفه من حد من حدود الله تعالى ، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي فَقَالَ وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ قَالَ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **طَهِّرْنِي** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ فِيمَ **أُطَهِّرُكَ** فَقَالَ **مِنْ الزِّنَى** فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبِهِ جُنُونٌ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ فَقَالَ أَشَرِبَ خَمْرًا فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزَنَيْتَ فَقَالَ نَعَمْ فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ قَائِلٌ يَقُولُ لَقَدْ هَلَكَ لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ وَقَائِلٌ يَقُولُ مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ **اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ** قَالَ فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ثُمَّ جَاءَ

[1])علي بن نايف الشحود موسوعة الرد على المذاهب الفكرية ج36 ص 337
[2]) إرشاد النقاد ج1 ص 29
[3]) المنثور في القواعد ج3 ص 32
[4]) الأشباه والنظائر ج1 ص 410

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَقَالُوا غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**)[1]

قوله (وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) الإخسار أن تجعل غيرك خاسرا ، فالإخسار في الميزان من صور الغش التجاري ،وهو مبطل العقد ، لأنه يعتمد على الحيلة والخداع لإرادة المتعاقد ، فيبين له ما يظنه بوزن أو كيل معين ، فإذا به يجده أقل مما تعاقد واتفق عليه مع البائع ، فتلحقه الخسارة من ذلك ، وله صور كثيرة بحسب المجال الذي يحصل فيه ، كما في التجارة وفي القضاء وفي الشهادة وفي تقليد الولايات والسياسة ..الخ.

وأسباب الغش في الميزان كثيرة ، منها **الكره والبغض** ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا** هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة 8) ، ولذلك لما فتح الله تعالى على رسوله مكة لم ينتقم ممن آذوه فيها قبل الهجرة ، بل قال لهم اذهبوا أنتم الطلقاء ، فإنه ﷺ لما أَتَى الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيِ الْبَابِ فَقَالَ :« مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ » قَالُوا : نَقُولُ ابْنُ أَخٍ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٍ رَحِيمٍ قَالَ وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلاَثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ (**لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ** وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) » قَالَ فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِى الإِسْلاَمِ .. وقَالَ لَهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا فِى الْمَسْجِدِ :« مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟ ». قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ :« اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ »[2]

ومنها التهاون والغفلة ، قال ابن عاشور (فإن حُمِل الميزان فيه على معنى العدل كان المعنى **النهي عن التهاون بالعدل لغفلة أو تسامح** بعد أن نهى عن الطغيان فيه، ويكون إظهار لفظ الميزان في مقام ضميره **تنبيها** على شدة عناية الله بالعدل) [3].

ومنها الرغبة في **أكل المال بالباطل** ، قال ابن عاشور (وإن حُمل فيه على **آلة الوزن** كان المعنى النهي عن غبن الناس في الوزن لهم) [4].

[1]) رواه مسلم ج9 ص 68 رقم 3207

[2]) رواه البيهقي ج9 ص 118 رقم 18739 وذكره ابن حبان في السيرة النبوي ج1 ص 315 ، وابن كثير في السيرة النبوية ج3 ص 570 ، وسيرة ابن هشام ج2 ص 411 ، وابن القيم في زاد المعاد ج3 ص 356 ، والشمائل للسيوطي ص 217 ، وضعفه الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة ج3 ص 307 رغم شهرته فهو معضل

3) التحرير والتنوير ج27 ص 225

4) التحرير والتنوير ج27 ص 225

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ **لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ** بَيْنَكُمْ **بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**)(النساء 29) ، وقال تعالى (**وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**) (المطففين 3)

ومن صور إخسار الميزان كذلك **رشوة الحكام والقضاة** للإخلال بميزان العدل ، قال تعالى (**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**) (البقرة 188)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي**)[1]، وعن عدي بن عميرة الكندي أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال (يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عُمِّلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ – أي استعملناه على عمل له فيه ولاية على الناس – فَكَتَمَنَا مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ – أي لم يؤد خزانة الدولة كل المال – فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]

أو استمالتهم بالمال ليقتطعوا لهم من أموال الناس ما ليس لهم كأرض معينة ، أو أن يعفيهم من الضرائب أو بعضها أو قضاء مصلحة معينة قبل غيره ..الخ ، ولو كانت العطية على صورة هدية ، لقوله ﷺ (هدايا الأمراء غلول) ، فعن أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ (**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا** وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثًا)[3]

وعن مالك قَالَ : أَهْدَى رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ وَكَانَ مِنْ عُمَّالِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **نُمْرُقَتَيْنِ** لِامْرَأَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَدَخَلَ عُمَرُ فَرَآهُمَا فَقَالَ مِنْ أَيْنَ لَكِ هَاتَيْنِ اشْتَرَيْتِهِمَا أَخْبِرِينِي وَلاَ تَكْذِبِينِي قَالَتْ بَعَثَ بِهِمَا إِلَيَّ فُلاَنٌ فَقَالَ **قَاتَلَ اللَّهُ فُلاَنًا إِذَا أَرَادَ حَاجَةً فَلَمْ يَسْتَطِعْهَا مِنْ قِبَلِي أَتَانِي مِنْ قِبَلِ أَهْلِي** ، فَاجْتَنَبَذَهُمَا اجْتِبَاذًا شَدِيدًا مِنْ تَحْتِ مَنْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَالِسًا فَخَرَجَ يَحْمِلُهُمَا، فَتَبِعَتْهُ جَارِيَتُهَا، فَقَالَتْ إِنَّ صُوفَهُمَا لَنَا فَفَتَقَهُمَا وَطَرَحَ إِلَيْهَا الصُّوفَ وَخَرَجَ بِهِمَا فَأَعْطَى إِحْدَاهُمَا امْرَأَةً مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ، وَأَعْطَى الأُخْرَى امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ)[4].

ومن أسباب الإخسار في الميزان ذلك وجود صلة قرابة أو لأجل محاباة بعض الناس ، فآفة العدل الهوى ، قال تعالى (الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى** فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) (ص 26) ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ** شُهَدَاءَ لِلَّهِ **وَلَوْ عَلَى** أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا** وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء 135) ، فلا يحول دون القيام بالقسط الخوف من

---

[1]) رواه ابن ماجة ج7ص101 رقم 2304 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 34 رقم 1871
[2]) رواه أبو داود ج9 ص 474 رقم 3110 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج8ص81 رقم 3581
[3]) رواه البخاري ج22 ص 100 رقم 6639
4) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج10 ص 138 رقم 20981

أن تلحق الخسارة بالنفس أو المال والأعراض والأحباب ، فكل ذلك يهون في سبيل إقامة ميزن القسط وإحقاق الحق وإقرار العدل ، فإن حصلت الخسارة فإنها بقدر الله تعالى وتقديره .

قوله (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ، وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) فإذا ما أقام المكلفون ميزان الله تعالى الشرعي ، فعندئذ تكون الأرض موطنا للأنام جميعا إنسهم وجنهم ، ليعش فيها كل طائر وكل حيوان وكل الهوام ، كل صغير وكبير يعيش فيها بسلام ، قال تعالى (**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (نوح 10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (نوح 11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**) (نوح 12).

وهكذا يتعلم المكلفون أن الكون لا يعتدل ميزانه إلا حينما يتزن شرعا وكونا في آن واحد ، فإذا اتفق ميزان الشرع الذي طبقه الإنسان بحسب ما أنزله الله تعالى في كتبه وعلى رسله مع ميزان الكون الذي سيره ونظمه بحسب قدره بتقديره ومشيئته ، فعندئذ يتفكه الأنام وينعمون بالثمرات في الأكمام والحب والقوت وما فيه شذا وعطر كالريحان ، نعيم يقدره الله تعالى للأنام حين يقوم الثقلان بميزان الشرع ، قال تعالى (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ**)(الأعراف 96).

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:" " وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ " ، قَالَ:" **أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ**" ،وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: " وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ " ، قَالَ: "**التِّبْنُ**"، قَوْلِهِ " وَالرَّيْحَانُ " ، قَالَ: "**خُضْرَةُ الزَّرْعِ**"[1] .

فجمعت الآية من أصناف الخير ثلاثة ، التمر الذي يعد من الثمار الذي يمد بالقوة والطاقة ، والحب الذي هو القوت يمنع الجوع ، والريحان الذي هو نبات عطري مشروب مطهر للمعدة والأمعاء ويتداوي به [2] ، (ووصف الحب بأنه ذو العصف للتذكير بمنة جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في الحقول ، ونظير ذلك وصف النخل بذات الأكمام)[3]

قوله (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الأصل تصديق المكلفين بآيات الله الدالة على عظيم قدرته ، وأن يستلهموا منها الحكمة الداعية للانصياع لأوامره الشرعية ، فينهضون لإقامة منهج الشرع بميزان القسط الذي أمر الله به ، وعندئذ تعدل

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 263

[2]) يحتوي الريحان على اليوجينول، وهو من حاصرات قنوات الكالسيوم، ما يساعد على خفض ضغط الدم .يمد الريحان الجسم بالمغنسيوم وهو من العناصر التي تساعد على استرخاء الأوعية الدموية، ما يحسن الدورة الدموية، ويقلل الضغط على القلب. تساعد الزيوت الموجودة بالريحان على خفض مستوى الكوليسترول والدهون الثلاثية في الدم، ما يحسن صحة القلب

[3]) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج7 ص 557 (مجموعة علماء بالشارقة) تحت إشراف د المسلمي

حياتهم وفق الميزان الإلهي المحكم ، لكن عندما يُكذِّب الإنس والجان بآلاء الله الكونية ، فلا يقيمان منهج الله الشرعي ، فعندئذ يستفحل الظلم ويستبد الشر ، وعندئذ لابد وأن تتنغص معيشتهم وتضيق أرزاقهم ويتلوث البر والبحر والجو ، فيكون ذلك سببا في شقاءهما ، أفلا يكون تبدل الحال من الخير إلى الشر سببا للتصديق بآيات الله مرة أخرى .

المحور الأول

الميزان الكوني في الحياة الدنيا

(الإيجاد والفناء والرزق والقدرة)

وفيه أربعة مباحث :-

- من آلاء الله أن أقام حواجزا بين المخلوقات ليتحقق ميزان الإيجاد
- من آلاء الله الفناء لموازنة البقاء
- من آلاء الله توزيع الأرزاق بميزان
- تحدي القدرة الإلهية عجز المخلوقين

المبحث الأول

من آلاء الله أن أقام حواجزا بين العوالم المختلفة للموجودات والمخلوقات

قال تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)(الرحمن 14-25)

من رحمة الله تعالى أن خلق عوالم مختلفة وأوجدها في بيئات متنوعة ، وجعل بين تلك العوالم حواجزا حتى لا يبغي بعضها على بعض ، فقد من الله تعالى على خلقه بنعمة الإيجاد من العدم ، واختص الثقلين بتذكيرهما بتلك المنة باعتبارهما المكلفين على هذه الأرض بإقامة ميزان الحق ، وقد فصل سبحانه لنا شيئا من مادة خلقهما ليعلمنا رغم أن الإنس والجان يعيشان معا علي هذا الكوكب إلا أنه لا يجوز أن يتداخل العالمان مع بعضهما البعض ،كي لا يطغى أحدهما على الآخر ، فكل منهما مخلوق من مادة غير مادة الآخر ، فلا يستقيم أن يشتركان معا في زواج بينهما ، مثلما هو حال المشارق والمغارب ، فلا يختلط المشرق والمغرب حتى مع اختلاف مشارق الشتاء عن مشارق الصيف ، وكذلك مغاربها ، فلا تحل المشارق محل المغارب ولا المغارب محل المشارق ، وكذلك الكائنات البحرية التي تعيش في الماء المالح لا يستقيم لها أن تعيش في الماء العذب ، لا يمكن بأي حال من الأحوال توحيد عوالم الإنس مع عوالم الجان لاختلاف مادتهما التي خلقهما الله منها ، لأن في ذلك إفساد لهذين العالمين تماما مثلما يختلط الماء المالح بالماء العذب ، إذ لابد وأن يطغى أحدهما على الأخر ، فإما أن تذهب عذوبة الماء العذب ملوحة الماء المالح متى طغى عليه باستفاضة أو أن يطغى الماء المالح على العذب فيفقده عذوبته ، وليس ثمة أمر وسط بينهما ، وهو ذات الأمر في عالمي الإنس والجان ،فلا يجوز أن يحدث تداخل كوني بينهما وإلا حصل الفساد .

وبالرغم من أنهما مختلفان لهذه الدرجة إلا أنهما يشتركان في أمر واحد ، ألا وهو عبادة الله تعالى وإقامة ميزان الكون بالقسط والشرع الذي أنزله الله عليهم بالحق ، فكما أن للبحرين ماءهما المالح والعذب لا يختلطان لما خلقه الله تعالى بينهما من برازخ ، فإن هذه البرازخ لم تمنع من استخراج ما فيهما من خير من لآلئ ومرجان ، وعلي ظهرهما تجرى منشآت وسفن ومراكب كالأعلام ، لا فرق بين مالح وعذب ،كذلك الإنس والجان وإن اختلفا في أصل مادتهما التي خلقهما الله عليها إلا أنهما مكلفين بإحقاق الحق وإقامة العدل على هذه الأرض ، وإعمار الكون .

ولذلك فلا غرو بأن يتأثر الجان بقراءة الإنسي للقرآن ، يقول سبحانه (**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا** فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) (الأحقاف 29) ، فكان من الطبيعي أن يستمع الجن لقراءة القرآن من النبي ﷺ أو من غيره ممن آمن به ، بل إن الملائكة ذاتها تستمتع لقراءة المسلم للقرآن ، ففي الحديث

أن أسيد بن حضير كان يقرأ القرآن وكانت الملائكة تظله مثل المصابيح ولكنه أوقف القراءة فلما أصبح وأخبر النبي ﷺ قال له (**تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم**) [1] .

إذن التفاعل الشرعي بين عالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة ممكن ، أما التفاعل الكوني فغير جائز ، ويكفي للتدليل على التفاعل الشرعي بين الإنس والجان ما قاله النبي ﷺ لأبي سعيد الخدري (**إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه (لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)** [2].

فإذا عرفت الحدود فلا غرو أن يُستخرج من كنوز الأرض والبحر اللؤلؤ والمرجان فكنوز البحار كثيرة – ولا شك –، والخير والحلي فيهما لا ينفد ، وعليهما تجري المنشآت العظام – السفن المواخر – بما يحقق الخير للناس وتنقضي به مصالحهم ، يقول المولى سبحانه (وَهُوَ الَّذِي **سَخَّرَ الْبَحْرَ** لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا **وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** وَتَرَى **الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل 14) .

وقد كان الجن في العهد السليماني مسخرين له ويغوصون بأمره ليستخرجوا له الدرر من اللآلئ والحلي من البحار ، يقول سبحانه (**وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ**) (ص 37) ، لكن هذا العهد قد انقضى ولم يجز بعد ذلك تسخير الجان لاستخراج شيء من الكنوز والأشياء المفقودة وغير ذلك ، لقوله سبحانه (**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**) ، فلا ينبغي لأحد بعد نبي الله سليمان أن يسخر الجان لطاعته مهما كان شأنه ، ولذلك أضحى المخاطب بهذه الآية (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) الثقلان ، **كل منهما يستخرج لنفسه لا لغيره** .

وهذا يعني أن التفاعل الكوني بينهما قد انتهى عهده ، أما التفاعل الشرعي بما يحقق معنى عمارة الكون ، وتحقيق ما فيه نفع عام مثل منفعة البحرين الصالحة لنقل الأشياء والبضائع الثقال علي السفن المحملة بأعظم المتاع ، فهذا يعني أنهما سببان لنشر الخير والمنفعة لمصالح الأنام جميعا .

قال بعض أهل العلم إنه **لا يُسْتَعَانُ بالجن لا مسلمهم ولا كافرهم**، وذكر أَنَّ الجن يُخْبِرُونَ أَنَّهُمْ مسلمون فهذا لا يُصَدَّقْ؛ لأنه من علم الغيب فنؤمن أنه من الجن من هو مسلم وكافر، إلى آخره؟[3]

---

[1]) رواه البخاري ج4 ص 1916 رقم 4730
[2]) رواه البخاري ج1 ص 221 رقم 584
[3]) إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل - شرحها الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ج49 ص 13

فالاستعانة بالجن حرام سواءٌ كانت استعانة بالجني الكافر الشيطان أم بالجني المسلم، وذلك لعدة أدلة:

الدليل الأول: أنَّ استمتاع الجني بالإنسي والإنسي بالجني محرمٌ في نصوص الكتاب والسنة وأنه لا يُسْتَثْنَى من ذلك، لم يرد الدليل بالاستثناء ولا بالتخصيص، فبقاء الأمر على عمومه بما يشمل الجميع هذا هو الأصل وهو المتَعَيّن.

قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا) [الأنعام : 128] ، فحصل الاستمتاع – كما قال المفسرون – من الجني بالإنسي : بأن الإنسي يتقرب إليه ، ويخضع له ، ويذل ، ويكون في حاجته ، ويحصل الاستمتاع من الإنسي بالجني بأن يخدمه الجني ، وقد يكون مع ذلك الاستمتاع ذبح من الإنسي للجني ، وتقرب بأنواع العبادات ، أو بالكفر بالله – جل وعلا – والعياذ بالله ، بإهانة المصحف ، أو بامتهانه أو نحو ذلك ؛ ولهذا نقول : إن تلك الاستعانة بجميع أنواعها لا تجوز ، فمنها ما هو شرك –كالاستعانة بشياطين الجن– يعني : الكفار – ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك ،كالاستعانة بمسلمي الجن[1]

وهو ما أكده إفتاء اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء فقد نصت فتواها على أن (الاستعانة بالجن واللجوء إليهم في قضاء الحاجات من الإضرار بأحد أو نفعه شرك في العبادة ، لأنه نوع من الاستمتاع بالجن بإجابته سؤاله وقضائه حوائجه في نظير استمتاع الجني بتعظيم الإنسي له ولجوئه إليه ، واستعانته به في تحقيق رغبته .. فاستغاثة الإنسي بالجني في إنزال ضرر بغيره واستعانته به في حفظه من شر من يخاف شره كله شرك) (فتاوى اللجنة الدائمة 1/ 407-408)

الدليل الثاني: أنَّ الجن في زمن النبي ﷺ ،كان منهم مسلمون كثير أسلموا، قال (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)[الجن:1] إلى أن قالوا (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)[الجن:11]، وكذلك قوله (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ)[الجن:14]، وكذلك في آخر سورة الأحقاف (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)[الأحقاف:30].

فالجن في زمن النبوة كان منهم من صَحِبَ النبي ، وأسْلَمَ على يديه، وعندهم من القُدَرْ ما ليس عند غيرهم، وقد مضى زمن النبوة بأزمان ولم يَسْتَعِنْ النبي ﷺ بالجن، ولم يَسْتَعِنْ الصحابة بهم وقد واجهتهم أشياء.

فهذا الدليل وهذا الإجماع أعظم وأبْلَغْ مما يُسْتَدَلْ به على أَنَّ هذا الأمر من البِدَعْ لأنَّهُ لم يكن في زمن السلف.

هذه المسألة أظهر وأبلغ لأنهم لم يستخدموا ذلك ولم يستعينوا بهم لا بمسلمهم ولا بكافرهم.

الدليل الثالث: أنَّ فتح باب الاستعانة هذا هو فتحٌ لباب الشرك بالله ، فيجب سَدُّهُ، وهو أولى من سَدِّ بعض أنواع ذرائع الشرك[2].

قال الشيخ صالح آل شيخ (الاستعانة بهم لاشك أنَّهُ ذريعة لأن يأمر الجني الإنسي إذا فُتِحَ الباب أن يأمره بالتَّقَرُّبْ أو ببعض الأشياء ، وقد بَلَغَنِي بيقين عن بعض من يتعاطى القراءة وهو من الجَهَلَة، ليس من أهل العلم ولا من طلبة العلم ممن

[1]) الشيخ صال آل شيخ : شرح كتاب الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب درس 22 ص 374

[2]) وهو أيضا رأي الشيخ الألباني : دروس الشيخ الألباني مفرغة : درس 44 ص 6 تفريغ الشبكة الإسلامية

فَتَحَ هذا الباب فسَيْطَرَ عليه الجن وهو لا يعلم في هذا، وأصبح يأمرونه بأشياء وينهونه عن أشياء، وربما أَذَلُّوهُ في بعض الأمور، فَسَدُّ الذريعة في هذا واجبٌ ولا يجوز التساهل به)[1].

لكن **للإمام ابن تيمية رأي آخر فيه شيء من التفصيل ويعتمد علي الخبرة والممارسة بين الناس** ، إذ قال (استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس.. وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْ الْجِنِّ يَمِيلُ إلَى نَظِيرِهِ مِنْ الْإِنْسِ . فَالْيَهُودُ مَعَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَعَ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفُسَّاقُ مَعَ الْفُسَّاقِ وَأَهْلُ الْجَهْلِ وَالْبِدَعِ مَعَ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالْبِدَعِ ... وَاسْتِخْدَامُ الْإِنْسِ لَهُمْ مِثْلُ اسْتِخْدَامِ الْإِنْسِ لِلْإِنْسِ بِشَيْءٍ :-

مِنْهُمْ مَنْ **يَسْتَخْدِمُهُمْ فِي الْمُحَرَّمَاتِ** مِنْ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالشِّرْكِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَقَدْ يَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَفْعَالِ الشَّيَاطِينِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ **يَسْتَخْدِمُهُمْ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ** إمَّا إحْضَارِ مَالِهِ أَوْ دَلَالَةٍ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ مَالٌ لَيْسَ لَهُ مَالِكٌ مَعْصُومٌ أَوْ دَفْعِ مَنْ يُؤْذِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا كَاسْتِعَانَةِ الْإِنْسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ .

و" النَّوْعُ الثَّالِثُ " أَنْ **يَسْتَعْمِلَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** كَمَا يُسْتَعْمَلُ الْإِنْسُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ فَيَأْمُرَهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَمَا يَأْمُرُ الْإِنْسَ وَيَنْهَاهُمْ وَهَذِهِ حَالُ نَبِيِّنَا ﷺ وَحَالُ مَنْ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ بِمَا أَمَرَهُمْ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ)[2]

وقد علق الشيخ صالح آل شيخ على كلام ابن تيمية فقال (ذكر الحال الثالثة: أنه قد يعرض الجني للإنسي في أَمْرٍ يُعِيْنُهُ فيه هذا لا بأس به.

فيُحْمَلْ كلامه على أنه في حالة –لأن بعض السلف فعلها– في حالة أَنَّهُ يَعْرِضْ له.

مثلاً يأتيه ويقول أنا أيقظك لصلاة الفجر، أو يضيع من الطريق مثل ما حصل للإمام أحمد، قد يكون من الملائكة وقد يكون من الجن الله أعلم؛ لكن يقول الطريق من هاهنا فيتبعه.

هذا ليس استعانة ليس طلباً للعون، وإنما هو إرشاد، وهذا الإرشاد مُتَوَقِّفْ على صدق المُرْشِدْ وعلى كذبه)[3].

فالإنس والجن قضيتهم واحدة ولا غرو أن يتفاعل كل منهما مع الآخر بقصد الصدع بالحق والدعوة في سبيل الله والجهاد بماله ونفسه في سبيل الله ، فقد ثبت تبشير الجن للإنس بقدوم النبي ﷺ وبعثه بالرسالة ، فقد تحدث عمر بن الخطاب عن أيام الجاهلية حين كان نائما بجوار أصنام قريش ، فحكى عن قصة هو عاينها وعايشها إذ وجد رجلا جاهلا ممن يتقرب للأصنام يذبح بقرة قربانا لها ، فنهاه جني بصوت مرتفع قائلا له (**جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) يقصد من هذا الكلام التبشير بالبعث النبي ﷺ .

---

[1]) المرجع السابق اتحاف السائل ص 14

[2]) دقائق التفسير ج2 ص 140 مجموع الفتاوى ج13 ص87

[3]) المرجع السابق ص 15

قَالَ عُمَرُ (بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ ، **فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ يَا جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ** – يقصد التبشير بالبعث النبي ﷺ – يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

فَوَثَبَ الْقَوْمُ أي هربوا فزعا من هذا الصراخ الشديد

قُلْتُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا – أي قال عمر ذلك لشدة قوته وجراءته أراد أن يبحث عن هذا الرجل الذي بشر بالجني بقدوم النبي ﷺ –

ثُمَّ نَادَى يَا جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

فَقُمْتُ فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ)[1]

ومن الألفاظ المشكلة في النداء المنبعث، لفظ "يا جليح" مشتق من الجلاح ، وهو الجريء الوقاح الذي يكاشف بالعداوة، وقيل هو اسم صنم، أو اسم شيطان، أو نداء موجه للوقاح من المشركين الذين كانوا يتقربون للجن بالذبح أمام الأصنام في مكة .

ويعني "أمر نجيح" الأمر الظافر الناجح المحقق

بينما يصف "رجل فصيح" النبي محمد ﷺ المعلن للتوحيد الصريح.

أما قول الصحابي "فما نشِبْنا"، فمعناه: لم نتعلق بشيء من الأمور ولم يمض زمن طويل حتى شاع وأعلن مبعث الرسول ﷺ .

وقد ألمح الإمام البخاري بوضع هذا الحديث في باب "إسلام عمر" إلى أن **تذكر عمر لهذه الحوادث والهواتف العجيبة كان من مقدمات وعوامل تحول عقيدته وانشراح صدره للإسلام**، حيث انطبعت هذه الدلائل في ذاكرته وهدمت أركان الشرك في عقله قبل إسلامه بسنوات.

كما يستفاد من النص التأثير العظيم والمهيب لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله"؛ إذ أحدثت زلزالاً في عالم الجن وأبطلت هياكل الكهانة وشهادات الشرك، وأكرهت أعتى العوالم على الإقرار بالعبودية لله وحدانيته.

[1]) رواه البخاري ج12 ص 245 رقم 3577

المبحث الثاني

من آلاء الله سنة الفناء لموازنة سنة البقاء

قال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن 26-28)

فمن رحمة الله تعالى أن جعل فناء المخلوقات سببا لعدم التعلق بها : فلفظ (كل) يفيد عموم المكلفين لأن (من) تخص العقلاء ، يقول النبي ﷺ (أعمار أمتي ما بين ستين إلى سبعين وأقلهم من يجوز ذلك) [1] ، فهذا هو الأجل الذي حدده الله تعالى لأمة النبي ﷺ ، فقد يطول أمل الإنسان ليخرج عن حدود أجله ، فلو طال أجله لطال أمله ليخرج عن حدود أجله [2] ، فيكون تشبثه بالدنيا صارفا له عن الإقبال على الآخرة ، لكن من أحب لقاء ربه ، يقصر أمله ليصل إلى منتهى أجله ، وعندئذ يكون قد أفضى في الدنيا إلى ما قدم من عمل ، ليجازى عليه بالخير الذي وعده الله به ، يقول النبي ﷺ عن نفسه (**إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده**) [3].

وهذا المعتقد الإسلام قد ينجم عنه إشكال عند بعض من الفيزيائيين الذين يتمسكون بقانونهم ببقاء الطاقة ، وأنها لا تفنى بل تتحول ، وكذلك بعض الملحدين **الذين يروجون لهذا الخطأ العلمي** .

(Energy Conservation Law)

In physics, the law of conservation of energy states that the total energy of an isolated system remains constant—it is said to be conserved over time. Energy can neither be created nor destroyed; rather, it transforms from one form to another. For instance, chemical energy can be converted to kinetic energy in the explosion of a stick of dynamite. A consequence of the law of conservation of energy is that a perpetual motion machine of the first kind cannot exist. That is to say, no system without an external energy supply can deliver an unlimited amount of energy to its surroundings.

[1]) رواه الترمذي ج 5 ص 553 رقم 3550

2) يراجع قريب من هذا المعنى حديث النبي ﷺ الوارد في كتاب البخاري وغيره (هذا الإنسان و هذا أجله محيط به و هذا الذي هو خارج أمله) ج5 ص 2359 رقم 6054

[3]) رواه البخاري ج3 ص 1417 رقم 3691

والمقصود بذلك فيزيائيا –عندهم– أن حفظ الطاقة أو بقاء الطاقة بصورة كلية حاصل في أي نظام معزول ،فالطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ، ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى ، فيمكن تحويل الطاقة من صورة إلى أخرى مثل طاقة الحركة يمكن أن تتحول إلى طاقة حرارية ، ولكن ليس ممكنا في نظام مغلق معزول أن تخلق طاقة من ذاتها أو تفنى ، فالطاقة تتبع قوانين الانحفاظ.

فمن نتائج قانون حفظ الطاقة أنه لا يمكن تصور وجود آلة حركة أبدية من النوع الأول؛ بمعنى **استحالة صُنع آلة تنتج طاقة أو شغلاً دون أن تستهلك كمية مكافئة من الطاقة من مصدر خارجي** ، أي أنه لا يوجد نظام قادر على تزويد محيطه بكمية غير محدودة من الطاقة دون الحصول على إمداد خارجي منها.

فهذا التصور الفيزيائي للكون هو تصور ساذج وبسيط لأنه يتصور المادة أو الطاقة بحسب المقصود من التعريف بأنها تخلق ذاتها ، وأنها لا تفني بمعنى أنها لابد أن تتحول إلى مادة أخرى ، والذي حدا بأصحاب هذا الفكر لهذا القول هو استمرارية العالم واضطراد الكون على هذه الشاكلة آلاف السنين ، فاضطروا إلى تفسير اطراد العالم بأن اخترعوا هذا القول ليبرروا بقاء الطاقة ، ولو أنهم قالوا عكس ذلك لما استطاعوا تبرير هذه الظواهر الكونية المطردة ، أي لو قالوا أنها تفنى لفنت منذ زمن بعيد ، ولكنهم ولأنه اكتشفوا أنها تتحول لطاقة أخرى عمموا هذا القول ، وقالوا بعدم فناء الطاقة ، وهذا خطأ ، لأن الطاقة لابد وأن تفنى قبل فناء العالم يوم القيامة ، لقول النبي ﷺ (**حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**)[1]، ولو أنهم نسبوا بقاء الطاقة إلى طلاقة القدرة الربانية لما وقعوا في هذا الخطأ ، فالله يحفظ الكون بميزان محكم إلى أن يقضي أجل معلوم لكل شيء فيه ، قال تعالى (**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** (**الأعراف 34**) ، فالنمل أمة والأجرام السماوية أمة ،ولكل أمة أجل للبقاء ثم إذا جاء الأجل حصل لها الفناء ، أي أن الفناء حاصل لكل أمة قبل قيامة القيامة ، حتى إذا قامت انهارت السماوات والأرض وما فيهما .

ويلزم من عبارة الفيزيائيين آنفة الذكر أن الكون مستغن عن الله، فلا رب خلقه، ولا رب يدبره ويقوم عليه بالرعاية، وهذا منطق الملاحدة، فالله هو الحي القيوم)[2]، فالقول بأن المادة لا تستحدث من عدم وفقا لتصور الإنسان أثبت خطأه ، بعدما ظل الباحثون والعلماء يبحثون في أغوار الكون فاكتشفوا أن للكون ثلاث أنواع من الطاقة أو المادة استطاع العلم أن يفسروا ويقيسوا كتلة المرئي منها ، وجعلوا ولم يستطيعوا تعريف الباقي ، وهي الطاقة الكونية والكتلة المظلمة

- **الطاقة الكونية (Dark Energy)** :

هي قوة غامضة وغير مرئية تُشكل حوالي 68% إلى 70% من إجمالي الكتلة والطاقة في الكون، وهي المسؤولة عن تسارع تمدد وتوسع الكون

وهي طاقة غير مرئية :لا تتفاعل مع المادة العادية أو الإشعاع الضوئي، لذا لا يمكن رؤيتها أو قياسها بشكل مباشر.

وهي قوة تنافرية :تعمل كقوة جاذبية معاكسة أو طاردة تقاوم جاذبية المادة العادية وتدفع المجرات للابتعاد عن بعضها بسرعة متسارعة.

---

[1]) رواه البخاري ج9 ص 488 رقم 2660

[2]) علي بن نايف الشحود : موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرية ج46 رقم 36

وقد رُصدت أول مرة عام 1998 من خلال دراسة المستعرات العظمى البعيدة(Supernovae) ، هذه الدراسة استظهرت أن تمدد الكون يتسارع بدلاً من أن يتباطأ.

- **الكتلة المظلمة (Dark Matter)** :

Dark matter is the invisible glue that holds the universe together. This mysterious material is all around us, making up most of the matter in the universe. But what exactly *is* dark matter? That's a question that scientists have been trying to solve for almost 100 years.
Dark matter makes up most of the mass in galaxies and galaxy clusters. In fact, scientists estimate that ordinary matter makes up only about 5% of the universe, while dark matter makes up about 27%. (The rest is thought to be dark energy, which is its own mystery). It's thought that dark matter shapes the cosmos, organizing galaxies and cosmic objects on a large scale[1].

[1]) https://science.nasa.gov/dark-matter/

تُعد المادة المظلمة بمثابة الغراء غير المرئي الذي يربط أجزاء الكون ببعضها؛ فهذه المادة الغامضة تحيط بنا من كل جانب، وتشكل الجزء الأكبر من المادة الموجودة في الكون. ولكن، ما هي المادة المظلمة بالضبط؟ سؤال يسعى العلماء للإجابة عنه منذ ما يقرب من قرن من الزمان.

وتشكل المادة المظلمة معظم كتلة المجرات وعناقيد المجرات ،وتشير تقديرات العلماء إلى أن المادة العادية لا تشكل سوى 5% تقريباً من الكون، في حين تبلغ نسبة المادة المظلمة حوالي 27% (أما النسبة المتبقية فيُعتقد أنها تتكون من الطاقة المظلمة، التي تمثل لغزاً بحد ذاتها). ويُعتقد أن المادة المظلمة تلعب دوراً محورياً في تشكيل الكون، إذ تعمل على تنظيم المجرات والأجرام السماوية على نطاق واسع.

ووفقا لما تقدم قسم العلماء المادة والطاقة على ثلاثة أقسام[1]

القسم الأول : المادة العادية (الباريونية :(تشكل 5% فقط من الكون (كل ما يُرى من نجوم وكواكب ومخلوقات)

القسم الثاني : الطاقة المظلمة :تُشكل نحو 70% – 68% من الكون.

القسم لثالث : المادة المظلمة :(Dark Matter) تُشكل نحو 27% – 25% من الكون.

وهذا التقسيم يؤكد جهل علماء الطبيعة بالمادة والطاقة التي تمثل النسبة الأغلب في الكون فكيف يضعون قانونا لبقائها وحفظها وينظرون لعدم فنائها ، وهم يجهلون ماهيتها في الأساس ، يعزى ذلك إلى أنهم يرون القدرة الإلهية ولكنهم لا يتجرأون أن ينسبوا هذه القدرة لله سبحانه .

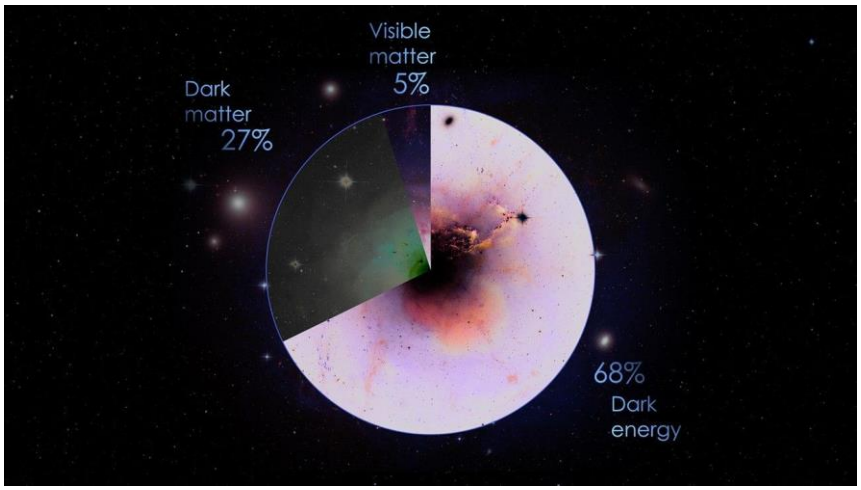

[1]) https://www.energy.gov/science/doe-explainsdark-matter

أما في الأرض فنحن نرى أثر ذلك في النار والضوء ، ولا نستطيع أن ندرك ماهية هذه الطاقة وإن حاول العلم تفسير كيفية حصولها :-

- **النار** لم يستطع العلم أن يضع تعريفا محددا ماهية النار ، وقد فسر العلماء سبب حدوثها بأنها نتيجة غازات ساخنة وجزيئات مثارة تطلق طاقتها الزائدة على شكل فوتونات) ضوء مرئي) وأشعة تحت حمراء (الحرارة التي نشعر بها). لون اللهب يعتمد على درجة الحرارة ونوع المادة المحترقة .
- **الضوء** لم يستطع العلماء قياس كتلة للضوء ولم يقدر أحد على أن يزعم أن له كتلة ، ولذلك قالوا أنه ليس مادة ، وإنما هو مجرد طاقة ، ولم يفسر أحد كيف جاء الضوء غير ما قالوه بأن ضوء الشمس نتيجة تفاعلات نووية بباطنها ، حيث تندمج ذرات الهيدروجين معاً لتكوين غاز الهيليوم مما يؤدي إلى توليد فوتونات نتيجة تحول الكتلة المفقودة إلى طاقة وجسيمات ضوئية تُسمى "الفوتونات " وتقطع هذه الفوتونات رحلة طويلة داخل طبقات الشمس لتصل إلى السطح.ثم تنطلق هذه الأشعة في الفضاء بسرعة الضوء حتى تصل إلى كوكب الأرض في غضون 8 دقائق تقريباً ،وتتوزع الطاقة الضوئية وتتحول لطاقة كميائية مخزنة في البنات عن طريق عملية البناء الضوئي ، فكل ذلك لم يفسر لنا ماهية الضوء حقيقة ، وكيف نشأ من العدم وكيف تلاشت تلك الطاقة في الظلام ، وإن استطاعوا تبرير تحول بعضها إلى طاقة كميائية ليجعلوا الفكر الإنساني يعظم الطاقة والمادة ، وينسى أن الله يسير الكون بمقدار ثم يفني عوالم وينشئ أخرى .

وقد رد أهل العلم علي عبارة (المادة لا تفنى ولا تستحدث) وعبارة (خلقت الطبيعة كذا) ، بأنها عبارة وثنية مسمومة ، وأقرب إلى الفلسفة النظرية منها إلي العلم ، وقد كان السبب في تدريس هذه النظريات المستمدة من الشيوعية أن المسلمين اقتبسوا "العلوم الغربية وهي مصطبغة بصبغتها الإلحادية، وإيحاءاتها الفلسفية، وتفسيراتها المادية"[1]، يقول الشيخ الغزالي (كانت المادية هى بدعة القرن الماضى، وكان الزعم السائد أنه لا وجود إلا للمادة، وأن ما وراء المادة عدم محض وأن المادة لا تفنى ولا تستحدث، وأن الدين بعد هذا كله أمسى لا مكان له!)[2]

قال ابن عثيمين (القول بأن المادة لا تفنى وأنها لم تخلق من عدم: كُفْر؛ لا يمكن أن يقوله مؤمن، فكل شيء في السماوات والأرض سوى الله فهو مخلوق من عدم -كما قال الله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)[الزُّمَر : 62]، وليس هناك شيء أزلي أبدي سوى الله.

وأما كونها لا تفنى: فإن عنى بذلك أن كل شيء لا يفنى لذاته، فهذا أيضاً خطأ وليس بصواب؛ لأن كل شيء موجود فهو قابل للفناء، وإن أراد به أن من مخلوقات الله مالا يفنى بإرادة الله فهذا حق، فالجنة لا تفنى وما فيها من نعيم لا يفنى، وأهل الجنة لا يفنون، وأهل النار لا يفنون.

1) أشرف بن عبد الحميد بن محمد بارقعان : مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسلمين ج1 ص 373

2) محمد الغزالي : قذائف الحق ج1 ص 61

لكن هذه الكلمة المطلقة (المادة ليس لها أصل في الوجود، وليس لها أصل في البقاء) هذه على إطلاقها كلمة إلحادية. فنقول: المادة مخلوقة من عدم، فكل شيء سوى الله فالأصل فيه العدم)[1] ، والقول الدقيق لهذه العبارة هو أن (المادة لا تفنى ولا تستحدث من المخلوق و تفنى وتستحدث من الخالق)[2].

وقد استثنت الآية من الفناء المطلق البقاء المطلق الذي لا يكون إلا لله تعالى ، والكناية بالوجه عن الذات الإلهية سبحانه تدل على أن الله سبحانه جميل يحب الجمال ، لأن الوجه موطن الجمال ، فهو سبحانه لا تعتريه العوارض التي تأخذ من الأشياء ولا يتأثر بالزمان والمكان ، فهو كما هو سبحانه ذو الجلال والإكرام ، فذلك هو المفهوم الصحيح لمعنى الإله ، فلا يتصور أن يموت (الإله) أو يقتل أو يصلب أو يصيبه ضر أو نقص ، لا شك أنه تصور يجافي المنطق السليم ، فالله تعالى هو الباقي المستأثر بالبقاء ، وكتب على خلقه الفناء وهو خالق الفناء و البقاء [3]، وقد نجم عن كونه سبحانه (الباقي) وغيره يفنى أن يكون هو سبحانه (الوارث) ، فيرث الأرض ومن عليها [4] ، يقول سبحانه (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (مريم 40) ، وقال سبحانه (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (مريم 93) .

[1]) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ج 3 ص 130 دروس الشيخ الدكتور سفر الحوالي درس 23 ص 23 تفريغ الشبكة الإسلامية
[2]) نايف بن علي الشحود : المرجع السابق الموسوعة العلمية للرد على المذاهب الفكرية المعاصرة ج46 ص 36
[3]) تفسير أسماء الله الحسنى ج 1 ص 64 لمؤلفه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالزجاج - الناشر : دار الثقافة العربية
[4]) حلية الأولياء لأبي نعيم ج5 ص 357

المبحث الثالث

من آلاء الله توزيع الأرزاق وتقدير الابتلاءات بميزان وحكمة

قال تعالى (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن 29-30)

ومن رحمة الله تعالى أن تفرد وحده بتوزيع الأرزاق وتقدير الابتلاءات بميزان قدَّره بحكمته : وقد ملك مقاليد السماوات والأرض ، وضمن لعباده الرزق فقال (**وفي السماء رزقكم وما توعدون**).

قوله (يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فهذا السؤال من كل المخلوقات ، مسلم أو كافر ، إنس وجن ، جميع المخلوقات مجبولة بفطرتها على الحاجة إلى خالقها واعتمادها عليه، فلا يستغني عنه طرفة عين أحد، لا أهل السماء ولا أهل الأرض ، أي كل من في السماوات والأرض، فيسأله جميع المكلفين من الإنس والجن والملائكة ، يسألونه الرزق وما يحتاجونه من الأشياء، قال ابن جزي (فمنهم من يسأله بلسان المقال ، وهم المؤمنون ، ومنهم من يسأله بلسان الحال لافتقار الجميع إليه)[1].

انظر إلى الرضيع كيف بفطرته يلتقم ثدي أمه ، من علمه ؟ من ألهمه ؟ يمتص الحليب بمهارة وفطرة أودعها الله فيه ، يبكي غريزيًا ليعبر عن جوعه أو ألمه دون أن يلقنه أحد ، هذا المشهد البسيط هو آية من آيات الله الدالة على ربوبيته؛ حيث أودع في هذا الكائن الضعيف "هداية الفطرة" ليطلب رزقه وبقاءه ، قال تعالى (هو الذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ) .

والله تعالى ولئن ضمن للخلق رزقهم ، كما في قوله (**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا** وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (هود 6) إلا أنه يحب أن يسأله عباده ، ويلحون عليه في السؤال ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ**)[2] .

والنبي ﷺ يعلم أن الله سبحانه ضمن له رزقه ، ولكنه يسأله لأنه يحب السؤال ، وكان النبي ﷺ يعلم أن الله يحب العبد اللحوح في الدعاء ، فكان يكرر في المسألة ، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ أن النبي ﷺ (كَانَ **إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا**)[3].

---

1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2262

2) رواه الترمذي ج12 ص 47 رقم 3536 وحسنه الألباني : مشكاة المصابيح ج2 ص 7 رقم 2251

3) رواه مسلم ج9 ص 275 رقم 3349

وكان يسأل ربه الرزق بقدر الكفاف فيقول ﷺ (**اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا**)[1] ، قال النووي (قال أهل اللغة العربية القوت ما يسد الرمق،وفيه فضيلة التقلل من الدنيا،والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك)[2]، فالنبي ﷺ لم يسأل ربه – من الدنيا – غير أن يكفيه قوته ، وهو قادر على أن يسأله خيري الدنيا والآخرة ، ويعزم في المسألة فيعطيه ما سأل ، ولكنه كان قانعا في الدنيا طمعا في الآخرة ، فليس أغنى ممن اغتنى بالله عن كثرة العَرَض ، يقول النبي ﷺ (**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**) [3] ، وتلك المرتبة غنى النفس ، لن يصل إليها إلا من قد أفلح يقول الرسول ﷺ (**قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه**) [4] .

قوله (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)(29) يعني أنه سبحانه يوزع الأرزاق على العباد بحكمته ، ويختبرهم بها وبالبلايا والمصائب ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) قَالَ (**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّجَ كَرْبًا وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَخْفِضَ آخَرِينَ**)[5]، والله سبحانه حين يوزع الأرزاق ، فإنه يعز من يشاء من عباده ويذل من يشاء ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، فيغني هذا بالمال،وذاك بالأولاد وآخر بالنساء وغيره بالسلطان ....الخ .

ولم يعط الله أحدا فضلا أو عطاء أوسع من الصبر ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ **وَمَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**)[6]

فمن رزق الكفاف وصبر فقد أفلح ، ولكن ابتلاؤه عند الله لا يزال مستمرا ، فيغير الله امتحانه بعد ذلك ، فيوسع رزقه ليختبره بالشكر كما اختبره بالصبر ، وهكذا يختبر الله كل منا بالابتلاءات والنعم ، ويبادل بينهما ، يقول سبحانه (**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**) (الأنبياء 35) فالتنوع في الابتلاء هو الاختبار الذي يفرز الناس ويقسمهم إلى شاكر وصابر ، والوصول إلى هاتين المرتبتين يحتاج لصبر وجلد وقوة إيمان ، وقال سبحانه (**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**) (الفرقان 20) .

---

1) رواه البخاري ج20 ص 95 رقم 5979
2) شرح النووي على مسلم ج7 ص 146
3) رواه البخاري ج5 ص 2368 رقم 6081
4) رواه مسلم ج2 ص 730 رقم 1054
5) رواه ابن ماجة ج1 ص 234 رقم 198 وعند البخاري عن قتادة معلقا في صحيحه ج15 ص 136
6) رواه أبو داود ج4 ص 454 رقم 1401

المبحث الرابع
تحدي القدرة الإلهية لعجز المخلوقين

قال تعالى (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (31-36)

ومن رحمة الله تعالى قبل أن يزن أعمال المكلفين ، أنه يتهددهم ويتحداهم ، ليشعروا بعجزهم وقلة حيلتهم ، فيستشعروا عظمة خالقهم وقوته ، فيحذروا عاقبه العاجل في الدنيا ، ويحذروا حاسبه وعاقبه في الآخرة .

قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) (31) أي (سَنَقْصدُ لِمُحَاسَبَتِكُمْ بَعْدَ الإِمْهَالِ)[1] ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ "سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ" ، قَالَ (**هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَلَيْسَ بِاللَّهِ شُغْلٌ**)[2] .

قال الثعالبي (عبارة عن إتيان **الوقت الذي قَدَّرَ فيه** ، وقضى أَنْ ينظرَ في أُمور عباده ، وذلك يوم القيامة ، وليس المعنى : أَنَّ ثَمَّ شغلاً يتفرَّغ منه؛ **إذْ لا يشغله سبحانه شأنٌ عن شأن** ، وإنَّما هي إشارةُ وعيدٍ وتهديدٍ ، قال البخاريُّ : وهو معروفٌ في كلام العرب؛ يقال : **لأَفْرُغَنَّ لَكَ ، وما به شُغُلٌ**)[3] .

وهو **كناية عن اقتراب الحساب ، بعدما ينقضى أمر الدنيا التي لم يمنع الله فيها الكافر قطرة ماء** ، فإذا ما دنت الساعة ذُهلت كل مرضعة عما أرضعت وانشغل الناس بها ، فلم يبق من أمر الدنيا شيء يستحق الانشغال به ، فلا سعي لطلب رزق ، ولا هم للناس عندئذ غير هم الآخرة ، فلا يسألون الله سؤالا متعلقا بالدنيا ،وإنما يسألونه السلامة من عذاب الآخرة .

وعندئذ يتفرغ المولى – مجازا – لحساب الخلق ، فليس عليه اليوم توزيع أرزاق العباد كما كان ذلك حاصلا في الدنيا ، وقد انهار ميزان الكون فلم يبق منها غير أرض المحشر ، وهي أرض غير أرض الدنيا ،كما انتهى الامتحان والابتلاء ، فلن يرسل الله رسلا بعد ولن ينزل كتبا ، وقد أضحى اليوم حساب بلا عمل ، وكأنه اليوم هو يوم تصحيح أوراق الإجابات ، فهو يوم الحساب ، ولن يمهل الظالم أكثر من ذلك ، فقد جاء وقت الجزاء ، قال ابن عجيبة (فلا يبقى إلاَّ شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم)[4].

---

1) الوجيز للواحدي ج1 ص 963 - أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 4811
2) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 266
3) تفسير الثعالبي ج4 ص 30
4) البحر المديد ج6 ص 209

قوله (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا..)(33) قال ابن عثيمين (هذه الآية في مقام **التحدي**)[1] ، قال ابن جزي (المعنى : إن استطعتم الخروج عن **قهر الله وقضائه** فافعلوا)[2]، إذ لا مهرب من قدر الله وقضائه ، (**مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**)(يونس27) .

قال ابن عاشور : (ذكرت السماوات والأرض **لتحقيق إحاطة** الجهات كلها **تحقيقا للتعجيز** رغم تعدد اتجاهاتها ووسعها..) ، فإذا عجز الإنسان عن أن يخرج عن سلطان الله في الدنيا ، فكيف بحاله يوم القيامة ، يقول سبحانه (يَقُولُ الْإِنسَانُ **يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ** ، كَلَّا لَا وَزَرَ ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) (القيامة 10-12).

ففي قصة ذكرها عمر بن الخطاب أنه اشتبه عليه رجل من هيئته ومنظره ، فحدث نفسه أنه كان كاهنا في الجاهلية ، وعمر كان ملهما ومحدثا ، وقد علم أن هذا الرجل اليوم قد أسلم ، فسأله هل كنت كاهنهم في الجاهلية ؟ فأجابه أي نعم ، فسأله عن حاله عندما كان يعمل بالكهانة واتصاله بالجن ، فذكر له موقفا أن الجن فزعت لما بعث النبي بالرسالة وذكرت بيتا مسجوعا فقالت (**أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا**) ، فصدقه عمر بن الخطاب .

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ فَقَالَ لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ عَلَيَّ الرَّجُلَ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ قَالَ فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي قَالَ **كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ** قَالَ **فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ؟** قَالَ بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي **أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ** فَقَالَتْ أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا، قَالَ عُمَرُ **صَدَقَ**)[3].

لفظ "**إبلاسها**" يعني التحير والدهشة واليأس القطعي من استراق السمع السماوي.

ولفظ "**إنكاسها**" يشير إلى الانتكاس والانقلاب على الرأس، والمقصود به الهزيمة النكراء والذل الذي لحق بالشياطين والجن إثر رميهم بالشهب الثواقب وحرمانهم من المقاعد التي كانوا يقعدون منها للسمع.

كما تشير "**القلاص**" إلى جمع قلوص وهي الشابة الفتية من الإبل، و"الأحلاس" جمع حِلس وهو الكساء الذي يوضع على ظهر البعير تحت الرحل، ليمثل هذا التركيب صورة بلاغية بديعة تصور فرار الجن وهربهم على أسرع الدواب ذعراً من التنزيل الإلهي.

فقد استفصل عمر بن الخطاب من «سواد بن قارب الدوسي» رضي الله عنه ، عن أعجب المشاهد التي واجهته مع رئيّه من الجن في مرحلة الجاهلية ، فرسخ سواد إقراره بوقوع التغير الكوني العظيم بعدما أحرقت الشهب الشياطين ورصدتهم ؛ وسرد كيف فُجِع ذات يوم في السوق بظهور جنيته مسرعة يتملكها الذعر والاضطراب، حيث أنشأت تنشده أبياتاً تعلن حقيقة التحول الحاصل في عالم الغيب الشيطاني ، مشيرة إلى ذل الجن وحيرتها ويأسها بعد انتكاسها ورجمها بالشهب، مما اضطرها للهرب والسعي المتواصل في الأرض ، فقد كشفت هذه الأبيات الشعرية عن مرحلة انقطاع استراق السمع وحراسة

---

[1]) تفسير القرآن للعثيمين ج13 ص 12
[2]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 2264
[3]) رواه البخاري ج12 ص 245 رقم 3577

السماء بالحرس الشديد مع بزوغ النبوة الخاتمة ، وقد نبه الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أن الإخبار المنقول هنا **لم يكن من قبيل الكهانة التقليدية** القائمة على خطف الكلمات المحرفة، بل كان نتيجة مباشرة للهزيمة الميدانية التي لحقت بالجن وحرمانهم من مقاعد السمع، مما جعل **هاتفهم مجرد شهادة اضطرارية بظهور التوحيد ونبي الأمة ﷺ** .

قوله (لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (33) المقصود بالسلطان هنا هو أمر الله النافذ ، إذا قال لشيء كن فيكون ، ما يعني أن قدرات البشر لا تملك ذلك ، وأنه يستعصي على جن أو بشر أن ينفذ إلا إذا شاء الله له ذلك ، وهو محمد ﷺ الذي خرج نبي الله من حدود الكون المكانية والزمانية في رحلة المعراج كما أخبرت بذلك سورة النجم ، وذلك بسلطان من الله تعالى ، ولم يتجاوز أحد غيره سدرة المنتهى، فلما وصل إليها تأخر عنه جبريل لأن سلطانه لا يتجاوز ذلك ، فهي مرتبة لنبي الله محمد ﷺ ، وهكذا يحصر الله الجن والإنس في هذه الحدود الزمانية والمكانية ولم يأذن لأحد إلا محمد ﷺ – فيما نعلم– ليجاوز ذلك .

وفي ذلك إشارة –كذلك– إلى أن الدجال مهما أوتي من القدرات فإنها محدودة ، وأنه لن يستطيع أن ينفذ من سلطان الله تعالى ، وهو ما تتحدث عنه في الآية التالية .

قوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ)(34)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (35) هذه الآية أعجزت الثقلين وأعجزت الجن أكثر علي وجه الخصوص ، فبالرغم من أن الجن فاق الإنس في القدرات الحركية والفيزيائية ، كما في قول النبي ﷺ (الجن ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون)[1] ، إلا أنهما يعجزان عن أن ينفذا من أقطار الكون الذي يحيط بهما ، ولا يقدران أن يهربا من قدر الله النافذ فيهما .

فالواقع يشهد أن قدرة الإنس والجن من الضعف بمكان أن تصل إلى السماء الدنيا ، وقد كثرت وتكررت محاولاتهما لعبور أقرب الكواكب أو البعد عن مدار الكرة الأرضية شيئا قليلا ، وقد عجز الإنس عن ذلك ، وكلما حاول الجن رصدتهم الشهب المحرقة — شواظ من نار —، فلم ينجو منها أحد كان يريد أن يسترق السمع .

قال تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) (الصافات 10)

1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج2 ص 495 رقم 3702 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 543 رقم5425

وهذه الآية تتحدى الدجال كذلك ، فقد حمى الله المؤمنين من سلطان الكافرين ، فلا يستطيع الدجال أن ينفذ بسلطانه إلى رقبة آحاد المؤمنين ، قال تعالى (**وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**) (النساء 141) ، رغم أن الدجال أوتي من القوة ما لم يملكه أحد من العالمين ، قال رسول الله ﷺ (**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ** فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ –أي ناحيته – **رَجُلٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ** ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ مَسَالِحُ الدَّجَّالِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ أَيْنَ تَعْمِدُ ؟ – أي أين تذهب؟ – فَيَقُولُ أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ – يقصد الدجال – قَالَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ –يقصدون أنهم يعبدون الدجال، فيسألونه أتؤمن به؟ – فَيَقُولُ مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ ، أي ينسب النقص للدجال ، ويثبت الكمال لله وحده سبحانه .

فَيَقُولُونَ اقْتُلُوهُ .

فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ –أي أن هذا هو أمر الدجال يسمونه بربهم ، فينتظرون حكمه فيه – قَالَ فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ

فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ فَيَقُولُ خُذُوهُ وَشُجُّوهُ فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا

قَالَ فَيَقُولُ أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي ؟قَالَ فَيَقُولُ أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ

قَالَ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ قَالَ ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ – وهذا نوع من السحر بعد أن ينشره يمشي بين نصفيه ليؤمن به الناس – ثُمَّ يَقُولُ لَهُ قُمْ فَيَسْتَوِي قَائِمًا – ليظن الناس أن الدجال قادر على أن يحيي الموتى –

قَالَ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَتُؤْمِنُ بِي ؟

فَيَقُولُ مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً

قَالَ ثُمَّ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنْ النَّاسِ قَالَ فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيُجْعَلَ – فعل مضارع مبني للمجهول – مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى **تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا** – معدن النحاس – فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا – أي لا يستطيع أن يذبحه بسبب النحاس –

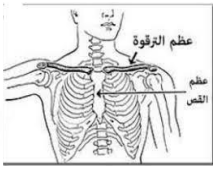

قَالَ فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1] .

فقوله (**فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا**) يدل على أن معدن النحاس الذي يوضع على ترقوة المؤمن بقدرة الله سبحانه يحول بين الدجال وبين ذبح هذا الرجل المؤمن ، فسبحان الله الذي يجعل في هذا المعدن قوة تفوق قوة الدجال .

1) رواه مسلم ج14 ص 170 رقم 5230

المحور الثاني

ميزان الله في الآخرة

وفيه ثلاثة مباحث

- قيام الساعة على شرار الخلق
- ميزان الإحسان للمقربين
- ميزان الإكرام لأهل اليمين

المبحث الأول

قيام الساعة على شرار الخلق

قال تعالى (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ [1]، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي [2]وَالْأَقْدَامِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن31-45)

أثبت الله عجز الإنس والجن أن ينفذوا من سلطان الله تعالى ، رغم تعاظمهما في الأرض وتفاخرهما بمتاع الدنيا الذي خوله لهما ، يقول المولى سبحانه (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ **أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا** كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(يونس 24) ، ولذلك حين يظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فإنهم يتعاظمون في أنفسهم ، عندئذ يتحداهم الله تعالى (إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا..) ، فهل يستطيعون؟ (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ) فلا يستطيعون لكن محاولاتهم لا تزال مستمرة ..هنا تقوم الساعة علي شرار الخلق

قوله (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ [3]، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) تقوم الساعة على شرار الخلق ، كما قال النبي ﷺ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ)[4] ، حيث ينهار ميزان الكون الذي أمسكه الله زمنا (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (فاطر 41) ، وأول بوادر هذا الانهيار هو السماء التي رفعها لتكون سقف هذا الكون حينئذ تنشق فيراها كل الأنام وهي تتداعى وتتهاوى للسقوط ، وقد كانت من قبل سقفا محفوظا ، فتهاويها يدل على انكشاف الغيب وظهور الملائكة وبدء الحساب .

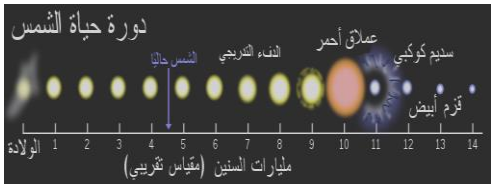

1) الدِّهان الجلد الأحمر وقيل الأملس وقيل الطريق الأملس وقال الفراء في قوله تعالى فكانت وَرْدَة كالدِّهان قال شبَّهها في اختلاف ألوانها بالدُّهن واختلافِ ألوانه قال ويقال الدِّهان الأديم الأحمر أي صارت حمراء كالأديم – لسان العرب ج 13 ص 160

2) مقدم رؤوسهم

3) الدِّهان الجلد الأحمر وقيل الأملس وقيل الطريق الأملس وقال الفراء في قوله تعالى فكانت وَرْدَة كالدِّهان قال شبَّهها في اختلاف ألوانها بالدُّهن واختلافِ ألوانه قال ويقال الدِّهان الأديم الأحمر أي صارت حمراء كالأديم – لسان العرب ج 13 ص 160

4) رواه مسلم ج10 ص 42 رقم 3550

وتشبيه السماء وهي تنشق بالوردة المتلونة باللون الأحمر [1] يوحي بالفزع والرهبة حيث ينعكس لون السماء على البحر فيصبغه باللون الأحمر وكذلك المجسماء وجميع الكائنات ، صورة تزيد من الرهبة والخوف ، وتشبيهها بأوراق الورد التي تتفتح يؤكد تشقق السماء واقتراب أجلها ، وشروعها في التفطر والانهيار (**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) (آل عمران 28).

قوله (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) هنا يبدأ الحساب ، فقد انتهى وقت الامتحان ، وشُرِع في الحساب ، ولا حاجة لتوجه الأسئلة لأنصية كاذبة خاطئة ، قيل (**لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ، ولكن يسأل سؤال توبيخ**) [2]، قال ابن كثير : قال قتادة (قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، يقول سبحانه (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) (يس 65).

فقد انتهى وقت الكذب ولا داعي للافتراء ، فالسماء قد انشقت ولا شيء يخفى عن الخلق ، وإنما تتوجه الأسئلة مباشرة إلى الجوارح والأفئدة لتجيب مكان الأنصية ، (**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) (الحجر 92-93)

قوله(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي[3]وَالْأَقْدَامِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) يميز الله المجرمين في أرض المحشر عن غيرهم فيسِمهم باللون الأزرق ، يقول سبحانه (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ **الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**) (طه 102) بما ينم عن الرعب وشدة خوفهم ، حيث تتلقاهم ملائكة العذاب بالضرب على وجوههم وأدبارهم بالنواصي والأقدام ، يقول سبحانه (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**)(محمد 27) ، إنه امتهان لمن تعد حدود الله تعالى وطغى في الميزان ، فلم يقم الميزان بالقسط كما أمر سبحانه ، قال تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ **لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**) (مريم 68-69) .

قوله (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) (الرحمن 37) الإشارة إلى جهنم بعدما رآها وعاينها المجرمون بمثابة تهيئة نفسية لأن يصلوها ، فيكون العذاب بها حق اليقين ،كما في قوله هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * **اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**) (يس 63-64) ، وقوله (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) (مريم 70)

---

[1]) مع تطوّر التكنولوجيا في القرن العشرين، أصبح العلماء قادرون على رؤية السماء وما تحتويه من نجوم بشكل أوضح من خلال التلسكوبات الأرضية والتلسكوبات الفضائية وتَبيّن للعلماء أن النجوم تدخل في اطوار مختلفة حيث يولد الجيل الثالث من النجوم بسبب تكثّف مخلفات انفجارات عنيفة لنجوم عملاقة سابقة، والتي بدورها تضيء وتسطع الى فترة معينة (أجل) ثم يحدث انهيار بالنجم يتبعه انفجار هائل يموت فيه النجم وبعنف شديد ... مثل سابقه وكما هو مبين ادناه.
اطوار الجيل الثالث من النجوم مثل شمسنا، النجوم مثل الانسان، تولد ثم تنضج ثم تموت. الاعجاز العلمي في فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ – سورة الرحمن
الصورة التالية هي لنجم انتهى عمره ... يشبه الوردة ... كأنه مرسوم بفرشاة دهان وصفه الموقع الخاص بوكالة الفضاء الامريكية بأنه يمثل اللحظات الأخيرة والمُقتَضبة ... ولكن مجيدة لنجم شبيه بشمسنا/https://fussilat.org/2012/03/07 !

[2]) الكشاف ج6 ص 471

3) مقدم رؤوسهم

قوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن 38-45) قال أبو حيان أي (يتردّدون بين نارها وبين ما غلى فيها من مائع عذابها)[1]، وفي ذلك إشارة إلى تنوع عذاب أهل النار كما كان ينوع المجرمون من الملذات المحرمة .

لفظ (**يطوفون**) فيه تبكيت لأنه يستعمل في الطواف عند أداء مناسك الحج ، وهؤلاء قد امتنعوا عن أداء هذه العبادة ، دون عذر ، روي في الأثر أن من مات ولم يحج فلا عليه – إن شاء – أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك إذا ملك الزاد والراحلة وليس له عذر من مرض أو ما شابه .

والحميم هنا إشارة إلى النار التي من شدة حرارتها أذابت المعدن فانصهر وصار سائلا ووصلت لدرجة الغليان ، كما في قوله (**هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**) (ص 57-58) يقول سبحانه (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا **أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** وَإِن يَسْتَغِيثُوا **يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (الكهف 29)

يقول النبي ﷺ (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه)[2] .

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ (ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال (هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) [3] .

1) أبو حيان : البحر المحيط ج10 ص 206
2) رواه البخاري ج5 ص 2400 رقم 6193
3) رواه البخاري ج3 ص 1408 رقم 3670

المبحث الثاني

ميزان الإحسان للمقربين

قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، ذَوَاتَا أَفْنَانٍ [1]، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِنَّ [2]قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن 46-61)

من رحمة الله بعباده المقربين أن يزن أعمالهم في الآخرة بميزان الإحسان : –

قوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (46) يعرفنا الله ما الذي أعده لعباده المحسنين الذين يتميزون بالخشية منه سبحانه، فعن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا قال (وعزتي **لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين** إذا **خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة)**[3] .

قال المناوي (فمن أعطى علم اليقين في الدنيا شاهد الصراط وأهوال القيامة بقلبه فذاق من الخوف ما لا يوصف فوضع عنه غدا ومر عليه كالبرق ، ونبينا أوفرهم حظاً من ذلك ..وكل من له هنا حظ من اليقين فذاق الخوف سقط عنه يوم القيامة)[4]

وقال القرطبي : (فمن استحى من الله في الدنيا مما يصنع استحى الله عن سؤاله في القيامة ولم يجمع عليه حياءين كما لم يجمع عليه خوفين)[5]

والواجب على المسلمين أن يعبدوا الله تعالى بالخوف والرجاء معا ، فلا يتكلون على الرجاء فيهلكوا ولا يأخذون بالخوف وحده فيقنطوا ، وإنما يجمعون بين الخوف والرجاء معا ، فهذا هو الخوف المطلوب ، خوف يصرفهم عن المعاصي ولا ييئسهم من رحمة الله تعالى ، يقول النبي ﷺ **(لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)**[6] .

قال العلماء (الجمع بين الخوف والرجاء سنة الله وسنة رسله عليهم السلام وسنة دين الإسلام ، **والأولى للإنسان تغليب الخوف في حق نفسه إلا عند اقتراب الأجل الاقتراب الخاص** أعني عند ظهور أمارات الموت في المرض الشديد)

---

1) الفَنُّ واحد الفُنُون وهي الأَنواع والفَنُّ الحالُ والفَنُّ الضَّرْبُ من الشيء والجمع أَفنان وفُنونٌ – لسان العرب ج 13 ص 326

2) قيل { فيهن } يعود على الفرش التي بطائنها من إستبرق

3) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 406 رقم 640

4) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 371

5) فيض القدير ج4 ص 649

6) رواه الترمذي ج5 ص 549 رقم 3542 وصححه الألباني – ورواه مسلم في صحيحه ج4ص2109 رقم 2755

[1]، وقالوا (كونوا دائما بين الخوف والرجاء ، فالخوف أن يخاف القلب من الله لما علم من ذنوبه والرجاء سكون الفؤاد بحسن الوعد) [2] ، وقال السلف (من عبد الله **بالحب وحده** فهو زنديق ومن عبده **بالخوف وحده** فهو حروري ، ومن عبده **بالرجاء وحده** فهو مرجيء ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد) [3] .

فالنصاري يظنون أنهم يتقربون لله تعالى بالحب فقط ، ولا حاجة للخوف منه ، لأنهم ينكرون فكرة العبودية لله ، لاعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، بيد أنهم بهذا المعتقد ينقصون الله تعالى حقا من حقوقه ، فهو الإله المستحق للعبادة وحده ، والعبادة تشمل الخوف والحب في آن واحد .

وقد ذكر بعض العلماء أن التعبير القرآني بلفظ (جنتان) قد تكرر في أكثر من مناسبة ، ففي وصف جنة مملكة سبأ قال سبحانه (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) (سبأ 15) ، والمراد أنها جنة واحدة لكنها بالاتساع الذي يستغرق الجانبين يمين القصور وشمالها ، كذلك قوله سبحانه (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) (الكهف 32) ، ففيه دلالة على الاتساع والشمول لمساحة واسعة من الأرض ، قال ابن عاشور (فهما جنتان باعتبار يمنة القصر ويسرته والقصر فاصل بينهما) [4] .

وقد قيل إحداهما التي خلقت له والأخرى ورثها ، وقيل جنة بالعمل وجنة لتركه شهوته [5] ، ولذلك اشتهر عن السلف قولهم أن (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد **حلاوته في قلبه)** [6]

والذي يتراءى لي–والله أعلم– أنها جنة له لأجل عمله الذي عمله لله ، ولا حظ لنفسه فيه ، والأخرى لما عمله لله وكان لنفسه فيه حظ منه ، يعجل الله له هذا الحظ في الدنيا ليستبشر بجنة الآخرة ، كالبركة في الرزق والسعة في المعاش ، ورضا النفس ، وراحة البال ، كما قال شيخ الإسلام بن تيمية : (أن **في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الأخرة)** [7] ، أي هناك جنة باطنة وأخرى ظاهرة ، فعن الحسن : في قوله (**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)** قال (**في الدنيا العلم والعبادة** ،وفي الآخرة **الجنة)** [8]، فهما جنتان جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

والمسلم لابد أن يكون قصده من العمل نيل جنة الآخرة ، وما يناله من جنة الدنيا فليس هو مقصود لذاته ، بل يأتي له تبعا لنيته الأصلية ، يقول الشيخ الشرنوبي (**لعباد الرحمن جنة معجلة** ، وهي حلاوة الطاعات ولذاذة المناجاة والاستئناس

---

[1]) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد ص 355 - المؤلف : محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي - الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ، 1987

[2]) البرهان المؤيد –ص 102 المؤلف : أحمد بن علي بن ثابت الرفاعي الحسيني- الناشر : دار الكتاب النفيس – بيروت - الطبعة الأولى ، 1408 تحقيق : عبد الغني نكه مي

[3]) شرح العقيدة الطحاوية ج1 ص 330 – لابن أبي العز الحنفي - الناشر المكتب الإسلامي بيروت ط 4 سنة 1391

[4]) التحرير والتنوير ج 1 ص 4255

[5]) يراجع في ذلك قول الشوكاني في الفتح القدير

[6]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 349 رقم 7875 وقال صحيح الاسناد ، وقال المنذري ورواتهم لا أعلم فيهم مجروحا – انظر كشف الخفاء ج2 ص 1862 رقم 2864 من حديث حذيفة ، وله شاهد عن البيهقي ، ولا عبرة للرواية المنسوبة لابن مسعود لضعفها .

[7]) الوابل الصيب ج1 ص 67 لابن القيم – وانظر كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) – ص 51 المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، وانظر مدارج السالكين ج1 ص 454

[8]) رواه الترمذي ج5 ص 522 رقم 3488

بالله ، **وجنة مؤجلة** وهو فنون المثوبات وعلو الدرجات ، ولا ينبغي للعامل إذا وجد الحلاوة أن يفرح بها أو يقف معها لأنه في الظاهر يكون قائماً لله ، وفي الباطن إنما قام لحظ نفسه ، بل **لا ينبغي أن يكون عمله لنيلها** لما فيها من اللذة والحظ ، **وذلك يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته** ، وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزاناً لأعماله ومحكاً لأحواله) [1].

قوله (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ[2])(48) (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وصف الله هاتين الجنتين بأنهما ذواتا أفنان وألوان وأحوال وضروب متعددة من النعيم ، قال أهل اللغة (فنن)(الغصن) : أَى (ذواتا غصون) وقيل: (ذواتا أَلوان مختلفة)[3].

(وخصّ الأفنان بالذكر وهي الغضة التي تتشعب من فروع الشجرة لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ومنها تجتنى الثمرات)[4] (وقد يعبر عن الشيء ببعضه لما يحققه هذا الأسلوب من تكثيفٍ في المعاني بأوجز الألفاظ وأبسطها)[5]

فهما من الناحيتين المادية والمعنوية ذواتا أفنان وشجون ، وبهما يستروح القلب ، فلا يمل ولا يضجر ، بل يشعر بالفرحة والسرور ، (الَّذِينَ آمَنُواْ **وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ** أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد 28) ، فلا طمأنية لقلب المؤمن إلا بذكر الله في الدنيا وفي الآخرة ، ولذلك يلهم أهل الجنة الذكر والتسبيح كما يلهمون النفس ، قال رسول الله ﷺ (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ ...يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ)[6]

قوله (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)(50) (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)(51) كناية عن أنهار الجنة التي في الآخرة ومنها كذلك في الحياة الدنيا ، فقد بوب الإمام مسلم بابا باسم (ما في الدنيا من أنهار الجنة) [7]، فقد ذكر النبي ﷺ أن (من أنهار الجنة في الدنيا نهر سيحون وجيحون ، وهما ببلاد خراسان جنوب تركيا ، وينبعان من جبال طوروس ، ونهر الفرات وهو بالعراق ، والنيل وهو بمصر) ، قال القاضي عياض (**هذه الأنهار الأربعة أكبر أنهار بلاد الإسلام**) [8] .

---

1) الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري شرح الحكم العطائية ج1 ص 70 – شرحا لحكم شيخه أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري
2) الفَنُ واحد الفُنُون وهي الأنواع والفَنُ الحالُ والفَنُ الضَّرْبُ من الشيء والجمع أفنان وفُنونٌ – لسان العرب ج 13 ص 326
3) الفيروزآبادي : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج1 ص 1223
4) بدر الدين العيني : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج23 ص 1
5) د. أبو عائشة : الدكتور عامر مهدي صالح : الأسباب الدلالية لاختيار المفردة القرآنية : أرشيف ملتقى أهل التفسير ص 681
أستاذ علم البلاغة والنقد في جامعة الأنبار بالعراق
6) رواه مسلم ج13 ص 472 رقم 5066
7) رواه مسلم ج 4 ص 2183 رقم 2839
8) ذكره عنه النووي في الشرح على صحيح مسلم

- نهر سيحان :(Seyhan) يقع في جنوب تركيا، ينبع من جبال طوروس، يمر بالقرب من مدينة أضنة، ويصب في البحر الأبيض المتوسط.
- نهر جيحان :(Ceyhan) يقع في جنوب تركيا بالقرب من سيحان، ينبع من جبال طوروس، ويتدفق ليصب في خليج الإسكندرونة بالبحر الأبيض المتوسط.
- دجلة والفرات هما نهران عظيمان في قارة آسيا، ويشكلان معاً حوض نظام نهري دجلة والفرات الذي قامت على ضفافه أقدم الحضارات الإنسانية في بلاد ما بين النهرين ، أي العراق وسوريا وتركيا.
- نهر النيل هو أطول نهر في العالم، حيث يبلغ طوله حوالي 6,650 كيلومتراً، ويتدفق شمالاً في قارة إفريقيا ليصب في البحر الأبيض المتوسط .

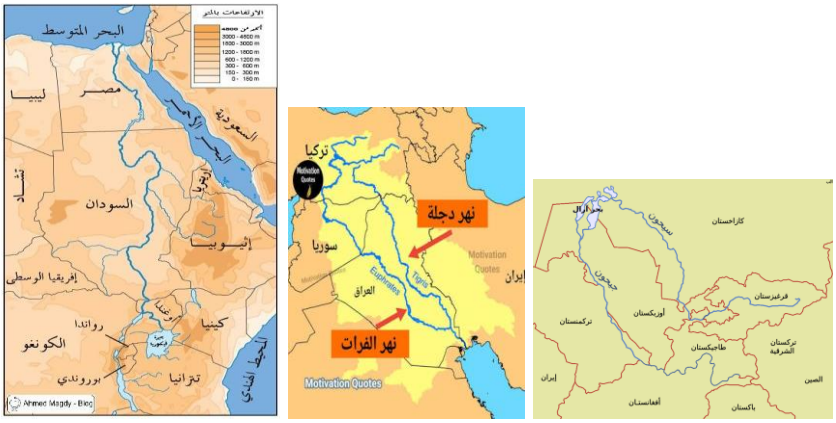

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ» [1]

ولما عرج بالنبي ﷺ إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار **نهران باطنان ونهران ظاهران** فقال النبي ﷺ ما هذان يا جبريل ؟ قال أما **الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات** [2]، وهما المذكورين في حديث مسلم .

1) رواه مسلم
2) رواه البخاري ج3 ص 1410 رقم 3674

وسورة الرحمن تحدثت عن أربعة عيون تجري ، فخصت المحسنين بعينين تجريان ، وخصت من دونهما بعينين نضاختين ، وعليه تكون الجملة أربعة أنهار كما أشار بذلك الحديث الذي رواه البخاري : نهران باطنان في الآخرة ، ونهران ظاهران في الدنيا ، والله أعلم .

وفي ذلك دلالة على أن نهري "النيل والفرات" ،وهما من أنهار الجنة الظاهرة في الدنيا ، هما –كذلك– سببا نعيم أهل الدنيا من المؤمنين ، إذ بهما يزرع الزراع ، وتشرب البهائم ويشرب الأنام ، ولولاهما لكانت البلاد التي انتشر فيها الإسلام انتشارا موسعا بلا زرع ولا ماء ولا حياة

وفي ذلك –كذلك– إشارة إلى أن الأمة الإسلامية إن أرادت أن تتمسك بأسباب السعادة الظاهرة في الدنيا وتنعم برزق الله تعالى ، فلابد وأن تنتبه لأهمية هذين النهرين بالنسبة لبلاد الإسلام والمسلمين ، وأن تستفيد منهما استفادة عظيمة بأن تقوم بالري والزراعة على الوجه الأمثل ، والقيام بمشروعات زراعية وصناعية متكاملة على هذه الرقعة الجغرافية التي هي مركز العالم الإسلام والعالم كله

ومن جهة أخرى فإن تقصير الأمة عن أداء هذه الفروض الكفائية يصيبها بالنغص في العيش والضيق في الرزق ، وليس ذلك هو مقام من يخاف مقام ربه ، والذي وعد بجنتين ، أحدهما جنة يصنعها في الدنيا بيديه وقلبه متوكل علي الله ، والأخرى يزرعها بأعماله الصالحة لينبتها الله له في الآخرة ، فالمسلم لا يعيش في جنة واحدة ولا ينتظر جنة الآخرة وهو مفتقد لجنة الدنيا ، وإنما يجمع بين الجنتين كما وعده الله تعالى في كتابه (ولمن خاف مقام ربه جنتان) إحداهما ظاهرة وهي في الدنيا ، والأخرى باطنة وهي في الآخرة .

قوله (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)(52)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أي في كلا الجنتين يتفكه المؤمن بأزواج شتى من الفاكهة ، فهي فاكهة كأخلاق المسلمين ، فعن النبي ﷺ قال (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها **مثل المسلم** فحدثوني ما هي) فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال (هي **النخلة**) [1]

[1]) رواه البخاري ج1 ص 34 رقم 61

(كونوا للناس كالشجر يلقونه بالحجر فيلقيهم بالثمر)

كما قال المتنبي : –

كُن كَالنَخيلِ عَنِ الأَحقادِ مُرتَفِعاً ... يُرمى بِصَخرٍ فَيُلقي يانِعَ الثَمَرِ

وإطلاق لفظ الزوجية على الفاكهة أضاف للمعنى **التنوع في التلذذ** بحامضها وسكرها ، وبرطبها مع حارها ، كما كان يفعل النبي ﷺ (**كَانَ يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ**)[1]، وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ فَيَقُولُ **نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا**)[2]

قال ابن القيم في قوله (من كل فاكهة زوجان) (الظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر وذلك لأن **اختلاف أصناف الفاكهة أعجب واشهى وألذ للعين والفم**)[3] .

قوله (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)(54)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) توصيف لحال المؤمن في جنات النعيم ، وهو متكئ على فرش بطائنها من الحرير ، ولم يذكر ظاهرها ليوسع الخيال في جمال ملمس ظاهرها ،ولذلك قيل (**هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر**) ، وعن عبد الله بن مسعود قال (قد أخبرتم بالبطائن، فكيف لو أخبرتم بالظواهر؟)[4]

[1]) رواه الترمذي ج7 ص 29 رقم 1766 ، وابن حبان ج12 ص 52 وصححه الألباني : ج4 ص280
[2]) رواه أبو داود ج10 ص 312 رقم 3339 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 56 رقم 57
[3]) حادي الأرواح ج1 ص 71
[4]) تفسير الطبري ج23 ص 62

قوله (..وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)(54) قال الطبري (وثمر الجنتين الذي يجتني قريب منهم، لأنهم لا يتعبون بصعود نخلها وشجرها، لاجتناء ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعود بغير عناء)[1] ، أي ثمارها قريبة منه يتناولها أهل الجنة بلا تعب ولا مشقة – قال تعالى : (قطوفها دانية) وقال (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ، قال ابن عباس (تدنو الشجرة حتى يجتنيها) [2]– ما يظهر الفارق بين جنة الدنيا التي تحتاج لزراعتها الجهد الشاق والتعب المستمر ، والصبر الطويل ليحين موعد قطف ثمارها ، بينما جنة الآخرة تجتنى ثمارها بلا تعب ولا مشقة .

قوله (فِيهِنَّ[3] قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)(56)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إشارة إلى أنس أهل الجنة بأهلهم أو بمن خلقهن الله من الحور العين ، وقد ابتدأ المولى سبحانه وتعالى في وصفهن بذكر جمالهن الخُلُقي قبل الحسي ، إذ **لا جمال ينسب للمرأة ما لم تعتدل أخلاقها وتستقيم على الحياء** ، فها هي نساء الجنة يُضرب بهن أورع مثال في الجمال الخُلُقي ، فهن قاصرات الطرف ، أي (لا ينظرن إلا إلى أزواجهن ولا يبغين غيرهم)[4] ، ولم يمسهن أحد من الخلق لا إنس ولا جان ، **فهن لأزواجهن ولهم خلقن** ، كما في قوله سبحانه (**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا** ، عُرُبًا أَتْرَابًا) (الواقعة 35-37) .

قوله (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)(58)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) انتقلت الآية لتصف جمالهن الحسي بعدما وصفت جمالهن الخلقي ، فتشبيه جمالهن الحسي بالياقوت والمرجان ، أي هن في (**صفاء الياقوت ، وبياض المرجان**) [5] .

الياقـــــــــــــــــــــــــوت المرجـــــــــــــــــان

يخبرنا النبي ﷺ بأن لكل واحد من أهل الجنة زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن [6] ، وعن النبي ﷺ قال (يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك ؟ قال يعطى قوة مائة) [7].

---

1) تفسير الطبري ج23 ص 62
2) ذكره القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن
3) قيل { فيهن } يعود على الفرش التي بطائنها من إستبرق
4) رواه البخاري ج4 ص 1848
5) ذكره القرطبي والطبري في تفسيرهما

قوله (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)(60)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فالسؤال الذي يلح على الأذهان بعد سماع كل هذا النعيم الذي أعده الله لأهل القربى منه ، لماذا كل ذلك النعيم ؟ يجيب المولى سبحانه إجابة شافية كافية (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) **فقد أحسنوا العمل وأتقنوه واجتهدوا في الطاعات وسابقوا غيرهم في الخيرات** ، فجزاهم الله تعالى بالإحسان إحسانا ، والله أعز وأكرم ، (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

---

[6]) رواه البخاري ج 3 ص 1185 رقم 3073

[7]) رواه الترمذي ج 4 ص 677 رقم 2536 وقال الألباني حسن صحيح

المبحث الثالث

ميزان الإكرام لأهل اليمين

قال تعالى (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، مُدْهَامَّتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ [1] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ [2] حِسَانٍ ، فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)(الرحمن62-78)

رحمة الله بأهل اليمين أن وزن أعمالهم في الآخرة بميزان الإكرام :

قوله (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)(62)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قال ابن كثير : (هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين) ، (ومما يدل على أن صفات هاتين الجنتين تقاصرت عن الأوليين قوله (مدهامتان) فإنه دون قوله (ذواتا أفنان) وذلك أن كمال الخضرة لا يوجب كون البستان ذا فنن و"نضاختان" دون "تجريان" و"فاكهة" دون "من كل فاكهة" وكذلك صفة "الحور" و"المتكأ")[3] .

يقول النبي ﷺ (**جنتان من فضة** آنيتهما وما فيهما **وجنتان من ذهب** آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن)[4] ، فالحديث المتقدم يشير إلى أن الجنة درجة من فضة ودرجة من ذهب ، ودرجة الفضة جنتان ودرجة الذهب جنتان .

ولعل التثنية مقصود بها في هذا المقام **الثقلان فجنة لمعشر الإنس وأخرى لمعشر الجن** ، والله أعلم ، ويؤكد ذلك أن السورة من أولها وأخرها تخاطب الثقلان الإنس والجن معا ، حتى أنها تؤكد على ذلك بتكرار قوله سبحانه (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ، لكن ما عليه جمهور العلماء أنهما يشتركان في جنة واحدة كما يشتركان في نار واحدة .

قوله (مُدْهَامَّتَانِ)(64)(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وصفت السورة الجنتين بما يدل على جمالها ومرتبتها التي هي دون مرتبة جنتي المقربين ، بكونهما (مدهامتان) أي شديدتا الزهو والخضار لنضارة الزرع ، وقد وصفت جنتي المقربين بأنهما (ذواتا أفنان) أي ألوان متنوعة ، مما يدل على الفارق بين الدرجتين.

---

1) الرَّفرَفُ الرَّقِيقُ من الدِّيباج والرَّفرَفُ ثياب خُضْرٌ يُتَّخذ منها للمجالس وفي المحكم تُبْسَطُ واحدته رَفْرَفَةٌ وفي التنزيل العزيز متكئين على رَفرَفٍ خُضْر وقرئ على رَفارف وقال الفراء في قوله متكئين على رفرف خضر قال ذكروا أنها رياضُ الجنة وقال بعضهم الفُرُشُ والبُسُطُ وجمعه رفارف – لسان العرب ج9 ص 124 – وباختصار كل ثوب عريض رقيق من ثياب الديباج – معجم ألفاظ القرآن الكريم ج3 ص 60

2) عَبْقَر موضع بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأنهم جِنُّ عَبْقَر – لسان العرب ج4 ص 534
وقد نسبت إليه العرب كل نافذ من إنسان وحيوان وشيء – معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 4ص 189 -

3) النيسابوري : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج6 ص 234 غريب القرآن للأصفهاني ص 386

4) رواه البخاري ج4 ص 1848 رقم 4597

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً **يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ** لَا يَقْطَعُهَا وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (**وَظِلٍّ مَمْدُودٍ**)[1].

قوله (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ)(66)(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) وصف جنة أهل اليمين بأن فيها عينان نضاختان ، أي تفوران بالماء ، والنضخ أقل من جريان الماء كما في جنة المقربين ، قال ابن القيم (والنضاخة هي الفوارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان)[2].

قوله (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)(68)(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) ذكر طعام أهل اليمين في الجنة بأن لهم فيها فاكهة وخص منها النخل والرمان بينما تنوعت فاكهة جنة المتقين بأشكال مختلفة من أزواج شتى دون تحديد معين .

قال تعالى (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

هنا تقدم وصف نساء لأهل اليمين عن وصف حالهم وهم متكئون ،، بينما تقدم وصف حال المقربين وهم متكئون على الأرائك على وصف نساءهم في الجنة .

[1]) رواه البخاري ج15 ص 143 رقم 4502
[2]) حادي الأرواح ج1 ص 71

فقوله سبحانه (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) (70) إجمال للصفات الخُلقية والحسية معا ، وذلك يذكرنا بقول النبي ﷺ (**إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط** إن مما يغنين به نحن **الخيرات الحسان** ، أزواج قوم كرام ينظرون بقرة أعيان ، وإن مما يغنين به نحن الخالدات فلا نمتنه ، نحن الآمنات فلا نخفنه ، نحن المقيمات فلا نظعنه) [1] .

ووصفهن بالخيرات إشارة وتأكيد على أنهن خير ، لاسيما وقد يفارق المسلم في الجنة زوجته كامرأة نوح وامرأة لوط ، ولما روي عن النبي ﷺ أنه قال أن (أقل ساكني الجنة النساء)[2] ، فيبدله الله خيرا منها بنساء أهل الجنة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُؤْذِيهِ** قَاتَلَكِ اللَّهُ **فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا**)[3].

فقوله (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) (72) وصف لأدبهن وأخلاقهن ورضاهن بالقرار والوقار في بيوتهن ، يعني (محبوسات قصرن طرفهن وأنفسهن على أزواجهن)[4]، فوقار المرأة في بيتها علامة على دلالها ومتاعها والاكتفاء بملكها في بيتها ، كما في قوله (**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**) .

يقول النبي ﷺ (إن في الجنة **خيمة من لؤلؤة** مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون) [5][6] .

في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

قال ابن القيم (وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار

قوله (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)(73) وصف مشترك لنساء الجنتين – أي جنة المقربين وجنة أهل اليمين – في كون نسائهم أنشئن لهم إنشاء ، فلم يتزوجهن إنس قبلهن ولا جان ، قال تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) (الواقعة 38) .

---

1) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح – انظر صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص269 رقم 3749 للألباني
2) رواه مسلم ج13 ص 282 رقم 4921
3) رواه الترمذي ج4 ص 407 رقم 1094 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ، المجلدات ج1 ص 172 رقم 173
4) رواه البخاري ج4 ص 1848
5) رواه البخاري ج4 ص 1849 رقم 4598
6) حادي الأرواح ج1 ص 145

وتلك الخصوصية يجدها أهل الجنة في أهلهم ، بخلاف أهل الدنيا فقد يتزوج الثيب التي أنكحت رجل قبله فطلقها أو مات عنها ، فالمرأة الثيب في الدنيا لا تخلو من كدر ، فإنها قد تذكر زواجها الماضي سيئه أو حلوه ، ، وقد تحن إلى لزوجها السابق لحسن معاملته لها فتقارن بين زوجها الحالي والسابق أو تمنُّ عليه بالفضل أنها تزوجته ، فتحصل الغيرة بينهما ويبدأ الشجار بينهما ، أو أن تتذكر سوء معاملة زوجها الأول لها ، فيؤثر ذلك عليها سلبيا بأن تخشى أن يكرر زوجها الحالي ذات المعاملة السيئة فتظل في احتراز منه ، أي تستصحب من الماضي ما يكدر عليها حاضرها ، ولذلك قال النبي ﷺ لجابر لما تزوج (هَلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا فَقُلْتُ تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا فَقَالَ هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ) [1]، وكأن الثيب أقل استعدادا للعب من البكر .

قوله (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)(76)(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) جاء وصف حال أهل اليمين وهم متكئون على رفرف خضر وعبقري حسان ، كدليل على الاستمتاع بالراحة والاسترخاء والطمأنينة والهدوء .

قيل أن "الرفرف الخضر"[2] " الوسائد" ، وقيل "السرر" ، وقيل "البسط" ، وقيل "رياض الجنة"[3] ، وقيل "الرفرف ما زاد على الفرش" ، يعني التي فيها ميزة الطيران ، كما في قوله (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ) (الواقعة 34) .

يقول القرطبي (الرفرف هو شيء إذا استوى عليه الولي رفرف به، أي طار به)[4]، أية ذلك حديث المعراج لما عرج بالنبي ﷺ وقد رأى جبريل على هيئة رفرف أخضر ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) قَالَ رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ)[5] .

وقيل أن العبقري الحسان "الفرش" ، أي "السجاجيد والطنافس" ، والله أعلم

ومهما وُصفت الجنة بأشياء تقريبا للأذهان بما يمكن مقارنته بشيء من الدنيا ، فلن نقدر على إدراكها على وجه الحقيقة ، يقول النبي ﷺ (فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)[6] ، قال ابن عباس : "**لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلا الأَسْمَاءَ**")[7] ، فما بالك وقد اختلف الناس في الأسماء في هذا الموضع ، ولهم عذرهم فالناس لا يستعملون في الدنيا سرائر ولا سجاجيد تطير ، ولعلها مسميات لدي الجان يستعملها الجان لأوصاف معينة .

والعَبْقَر موضع بالبادية كثير الجن يقال في المثل كأَنهم جِنُّ عَبْقَر[8] ، وقد نسبت إليه العرب كل نافذ من إنسان وحيوان وشيء[9] ، واقتران وصف العبقر بالحسان احتراز من أن ينسب إليها ضد ذلك .

---

[1]) رواه البخاري ج10 ص 126 رقم 2745

2) الرَّفرَفُ الرَّقِيقُ من الدِّيباج والرَّفرَفُ ثياب خُضْرٌ يُتَّخذ منها للمجالس وفي المحكم تُبْسَطُ واحدته رَفْرَفَةٌ وفي التنزيل العزيز متكئين على رَفرَفٍ خُضْر وقرئ على رَفارف وقال الفراء في قوله متكئين على رفرف خضر قال ذكروا أَنها رياضُ الجنة وقال بعضهم الفُرُشُ والبُسُطُ وجمعه رفارف – لسان العرب ج9 ص 124 – وباختصار كل ثوب عريض رقيق من ثياب الديباج – معجم ألفاظ القرآن الكريم ج3 ص 60

[3]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي ج1 ص 2279 وغيره الدر المنثور عن ابن عباس ج9 ص 378 ،

[4]) تفسير القرطبي ج17 ص 191

[5]) رواه البخاري ج11 ص 15 رقم 2999

6) رواه مسلم ج13 ص 452 رقم 5053

[7]) تفسير ابن أبي حاتم ج1 ص 65

[8]) لسان العرب ج4 ص 534

[9]) – معجم ألفاظ القرآن الكريم ج 4ص 189 -

ختام سورة الرحمن

قوله (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) قال أبو حيان (ناسب هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى ، إذ ذكر فناء العالم؛ وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة ، وهي النمو والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته)[1]

قال ﷺ « أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[2]، أي (الْزَمُوه واثْبُتُوا عليه وأَكْثِرُوا من قوله والتَّلَفُّظِ به في دُعائِكم . يقال : أَلَظَّ بالشيء يُلِظُّ إِلْظَاظاً إذا لَزِمَه وثابرَ عليه)[3].

وعن ثَوْبَانُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[4]

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[5]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا **ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ **لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ** الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى)[6].

وعن النبي ﷺ قال (سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟

قَالَ هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ

فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلْ الْجَنَّةَ

فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ

فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ **لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا**

فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ

فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ **وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ**

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ

فَيَقُولُ هَذَا لَكَ **وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ** وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ

قَالَ رَبِّ **فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً** ؟

---

[1]) البحر المحيط ج10 ص 210

[2]) رواه الترمذي ج11 ص 431 رقم 3447 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص172 رقم 2797

[3]) ابن الأثير : النهاية في غريب الأثر ج4 ص 500

[4]) رواه ابن ماجة ج3 ص 182 رقم 918 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 153 رقم 756

[5]) رواه مسلم ج3 ص 255 رقم 932

[6]) رواه النسائي ج5 ص 81 رقم 1283 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج4 ص 12

قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ **غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي** وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ **(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)** [1] .

[1]) رواه مسلم ج1 ص 437 رقم 276

فهرس الموضوعات

تمهيد :- 2
مقدمة سورة الرحمن 5
المحور الأول 17
الميزان الكوني في الحياة الدنيا 17
(الإيجاد والفناء والرزق والقدرة) 17
المبحث الأول 18
من آلاء الله أن أقام حواجزا بين العوالم المختلفة للموجودات والمخلوقات 18
المبحث الثاني 23
من آلاء الله سنة الفناء لموازنة سنة البقاء 23
المبحث الثالث 29
من آلاء الله توزيع الأرزاق وتقدير الابتلاءات بميزان وحكمة 29
المبحث الرابع 31
تحدي القدرة الإلهية لعجز المخلوقين 31
المحور الثاني 35
ميزان الله في الآخرة 35
المبحث الأول 36
قيام الساعة على شرار الخلق 36
المبحث الثاني 39
ميزان الإحسان للمقربين 39
المبحث الثالث 47
ميزان الإكرام لأهل اليمين 47
فهرس الموضوعات 53